ابتلاء الأنبياء

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

القاهرة - كوالالمبور - جاكارتا - لوس أنجلوس
تليفون وفاكس: ٢٥٦٥٩٣٩ - ٤٥٢١٠٣٨
Email: adel almoalem < shoroukintl@Yahoo.com >

ابتلاء الأنبياء

حنفى المحلاوى

مكتبة الشروق الدولية

المحتويات

الموضـــوع	الصفحة
المقدمة...	٩
تمهيد: الابتلاء .. في القرآن والسنة	١٥
١- سيدنا آدم عليه السلام	
- خلق آدم	٢٧
- الابتلاء في النفس	٣١
- الابتلاء في الولد	٣٦
٢- سيدنا نوح عليه السلام	
- الأنبياء والرسل	٤٣
- الابتلاء في الزوجة	٤٦
- الابتلاء في الولد	٤٩
٣- سيدنا إبراهيم عليه السلام	
- خليل الرحمن	٥٥
- الابتلاء في الأب	٦٠
- الابتلاء في النفس	٦٥
- الابتلاء في الولد	٦٩

الموضـــوع	الصفحة

٤- سيدنا لوط عليه السلام

- رسول الأخلاق الحميدة ... ٧٥
- ابتلاؤه في قومه ... ٧٧
- الابتلاء في الزوجة ... ٨٠

٥- سيدنا يعقوب عليه السلام

- أول أحفاد الخليل إبراهيم ... ٨٥
- الابتلاء في الذات ... ٨٧
- الابتلاء في الأولاد ... ٩٤
- الابتلاء في الصحة ... ٩٧

٦- سيدنا يوسف عليه السلام

- صاحب أحسن القصص ... ١٠٣
- الابتلاء بالاغتراب ... ١٠٦
- الابتلاء بالسجن ... ١٠٨
- الابتلاء بالاتهام بالباطل ... ١١٣

٧- سيدنا أيوب عليه السلام

- مضرب الأمثال ... ١١٩
- الابتلاء في الأموال ... ١٢٣
- الابتلاء في الأولاد ... ١٢٤
- الابتلاء في الصحة ... ١٢٦

٨- سيدنا يونس عليه السلام

- صاحب الحوت ... ١٣١
- الابتلاء في النفس ... ١٣٤

الموضـــوع	الصفحة

٩- سيدنا موسى عليه السلام

- كليم اللَّه ١٤١
- ابتلاء الغربة... ... ... ١٤٤
- الابتلاء في الصحة ١٤٨
- الابتلاء في النفس ١٥١

١٠- سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام

- آخر الأنبياء والرسل... ... ... ١٥٥
- الابتلاء باليتم ١٥٩
- الابتلاء في الزوجة... ... ... ١٦٢
- الابتلاء في الأولاد... ... ... ١٦٥

المراجع... ... ... ١٧١

• • •

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد للّه الذى ميز بنى الإنسان على غيرهم من مخلوقاته - فأعطاهم الحكمة النابعة من القلب قبل العقل. كما منحهم القوة والضعف فى النفس الأمارة بالسوء (إلا من رحم ربى) وجعل بينهما الصبر على المكاره وتحمل الأزمات والمشاق .. كمعبر آمن لهذه النفس ، وصلاة وسلامًا على نبينا الكريم محمد بن عبد اللّه خير المؤمنين وخير الصابرين .

وبعد ..

فإن هذا الكتاب الذى احتسبناه للّه تعالى.. إنما هو مشاركة صادقة من أحد عباده .. فى الدعوة لتحمل مصائب الدنيا ونكباتها التى تعصف بالإنسان من دون علمه .. وتصيبه فى نفسه أو ماله أو ولده .. وهى كذلك دعوة مخلصة لكل صاحب مصيبة لكى يتمسك بحبل اللّه ويصبر ولا يجزع .. وذلك مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥، ٦].

فكم من الخلق الذين واجهوا الشدائد والمصائب ، كادوا ينحرفون عن طريق اللّه القويم .. إما بأسًا وإما يأسًا .. وقد لعن اللّه الشيطان الذى يجد فى مصائب خلق اللّه متسعًا من المكان والزمان .. لكى يؤكد ما أصر عليه منذ أن طرد من رحمة اللّه .. بأن يقعد لعباد اللّه كل مرصد .. وأن يزين لهم سوء أعمالهم.

ومما دفعنا إلى وضع هذه الأوراق.. هو شد أزر كل صاحب مصيبة فيما ابتلاه رب العالمين رغمًا عنه .. ذلك لأن الابتلاء هو أحد سنن اللّه فى خلقه ..

يجريه على عباده لأجل الاختبار.. وقد خلقه اللّه مرادفًا لخلق الإنسان ذاته.. ليميز به الخبيث من الطيب.

وهناك المئات ، بل الآلاف من الأمثلة التى أجراها رب العزة على عباده فى حال الابتلاء ، والذى لم ينجُ منه أحد حتى أصفياؤه من الأنبياء والرسل.

وكاتب هذه السطور.. من بين عباد اللّه الذين ذاقوا مرارة هذا الابتلاء.. وعايشوه.. واكتووا بناره الحارقة ، ولولا فضل اللّه ورحمته ، إلى جانب تمسكه بحبل اللّه المتين ، لفعل به هذا الابتلاء أفاعيل قوية وقاسية ، كانت ربما تؤدى به إلى الهلاك ، هلاك النفس والمال والولد.. بعد هلاك الزوجة.

ولقد أخذ الشيطان يلعب برأسه طويلاً.. مستغلا فى هذا الأمر هذه المصيبة الكبرى التى اغتالته وأولاده بلا سابق إنذار.. وكان مدخل الشيطان إلى نفسه ، العقل قبل القلب ، وهذه الأسئلة التى كان فى ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب.. وكان هذا اللعين منذ الصباح وحتى المساء.. بل وفى جوف الليل ، يضع مئات الأسئلة والاستفسارات التى كانت تحتاج إلى ملايين الكلمات والعبارات.

وكان كثيرًا ما يسمع فى السر والعلن ، وبصوت مرتفع وآخر منخفض.. لماذا زوجك أنت بالذات ، وقد أصبح أولادك أيتامًا ؟ وماذا ستفعل مع نفسك وحياتك صارت بلا شريك ؟ وماذا ستفعل مع هؤلاء الذين من حولك والذين يتربصون بك وبأهلك من كل جانب؟!.. وماذا أنت فاعل وحدك فى هذه الأزمة؟!.

وبقى من ذلك أعظم سؤال ، وجواب فى الوقت نفسه ، حين انفرد الشيطان بالنفس.. ووسوس لها بالارتماء فى أحضانه والسير وراء خطواته داخل مواكب الرذيلة ، واتباع هوى الشهوات؛ لتحقيق النسيان المفقود ، والسعادة الزائفة.

ويا له من مطلب سهل ، وضعه الشيطان الملعون فى طريق نفسى بكل خبث

وذكاء.. وكادت تلك النفس الملتاعة أن تنحدر إلى تلك الهوة السحيقة التى حفرها بأظافيره ذلك الشيطان الرجيم ، لولا فضل اللَّه ورحمته اللذان تدخلا ونزلا من السماء ، واللذان تجليا فى صورشتى ، كان من أعظمها تذكر الصبر والصابرين.. وكذلك دعوات المحبين له ممن كانوا حوله آنذاك.

إن المصائب ، ياأيها الإنسان الملتاع ، تأتيك بلا استئذان ؛ إذ تسقط فوق رؤوسنا سقوط الأمطار الحمضية.. وهى لا تميز - حين يسوقها رب العالمين على سبيل الاختبار - بين مؤمن قوى الإيمان وآخر إيمانه ضعيف.. كذلك فهى لا تميز أيضًا بين غنى وفقير ، أو بين جنس دون آخر.. كما أنها لا تملك التمييز بين المال والنفس والأولاد.

ولقد ابتلى اللَّه بها عباده جميعًا ، وذلك ليكشف ما فى صدورهم وهو عليم بما فيها من صبر وإيمان وتسليم . فى رضى . بالقضاء والقدر.. ولكن هناك من الناس من يجزع ويحزن.. وينقلب على نفسه.. فيلجأ إلى الشيطان عساه أن يجد عنده الفرج!. وفى المقابل هناك أيضًا من يصبر ويشكر ويتقبل البلاء فى رضا وتسليم ، فيزداد إيمانه ويعوضه اللَّه خيرًا مما ابتلى فيه.

ولسوف نتعجب حين نعرف أن عباد اللَّه المصطفين الأخيار من الأنبياء والرسل كانوا أكثر الناس تعرضًا للبلاء والمصائب ، خاصة التى يعجز الإنسان العادى عن مواجهتها.. ولولا فضل اللَّه على هؤلاء الرسل الذين اختبرهم بالابتلاء ، لأدركهم أيضًا الشيطان.. ولاقتربوا من الخسران المبين ، ولكنه ثبت قلوبهم وملأ صدورهم بالإيمان والصبر وتقبل المكتوب ، فتحملوا ما نزل بهم. وخرجوا من هذا الاختبار سالمين غانمين.. وبذلك يكونون قدوة لغيرهم من عباد اللَّه الذين يتأسون بهم. فينالهم الصبر على الابتلاء.. وقد نظن أن الابتلاء مقصور فقط على نزول البلايا والمصائب والشدائد ، بل فيه وفق إجماع المفسرين شق آخر يرتبط بالخير فى حياة الإنسان.. حيث يصير ذلك الإنسان فى نعمة وغنى وصحة.

وأيضًا بهدف الاختبار ومعرفة من يشكر ومن يكفر بهذه النعم.. وإن كان الشق الأول المرتبط بالشدة والمصيبة يكون فيه الجزاء الأكبر؛ لأنه يتطلب صبرًا أكثر قبولا ورضًا بلا مناقشة أو اعتراض.. والعجيب فى الأمر أن معظم أنبياء اللَّه ورسله.. كان من نصيبهم فى أغلب الأحيان.. الابتلاء بالشدائد والمحن.. ومع ذلك صبروا.. شاكرين نعمة ربهم، فجزاهم اللَّه نعم الجزاء.

ولقد تراوحت هذه الكوارث وهذه المحن والمصائب فى حياة هؤلاء الرسل وهؤلاء الأنبياء ما بين إصابة النفس بالأمراض أو الاغتراب أو التفريق، وبين الإصابة فى الأهل والأولاد سواء بالفقدان أو بالرحيل.. فيالهول ما قابله هؤلاء العباد المصطفون الأخيار.. وما أشد ما تحملوه من مشاق، استسلامًا لأمر اللَّه وإرادته.. وكانت النتيجة عظيمة حين صبروا، فنالوا جزاء طيبًا وعوضهم اللَّه عمَّا فقدوه.

ولنا أن نعقد ولو مقارنة بسيطة بين ما يقابلنا من مصائب وكوارث وابتلاءات شتى، وبين ما لاقاه هؤلاء العباد المصطفون من الأنبياء والرسل، ومن بعد هذه المقارنة.. علينا أن نتساءل وبهدوء.. كيف صبروا؟!. وكيف صبرنا؟! ثم كيف جزاهم اللَّه به. وماذا ينالنا من الجزاء.. خاصة إن لم نصبر؟!

ولقد أثبتت التجارب أنه فئة كبيرة من عباد اللَّه يغفلون عن اللَّه ورحمته فى ظل أزمة أو كارثة - ولو ضعيفة التأثير - يقابلونها.. فما بالنا بمن يمر بأزمة أو مصيبة أو كارثة.. من النوع الثقيل الذى سوف نراه ونعيشه حين نلتقى بهؤلاء الأنبياء والرسل الصابرين الذين ابتلاهم اللَّه بهذا الكم الكبير من الشدائد!.. وقد وصفهم اللَّه بأنهم من أولى العزم من الرسل..

وكما هو معروف فإن الكتب المقدسة وعلى رأسها القرآن الكريم قد ذكرت لنا أن هناك المئات من الرسل ومن الأنبياء الذين ذكرهم اللَّه فى هذه الكتب..

وهناك إلى جانب ذلك أضعاف هذا العدد من الأنبياء والرسل الذين لم يذكر اللَّه أسماءهم لحكمة.. لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى.

ولقد اكتشفنا وفق رؤيتنا التى سوف نسردها فوق هذه الأوراق أن هناك عشرة من الرسل ومن الأنبياء الذين واجهوا الشدائد فى حياتهم أثناء تبليغهم رسالة السماء.. وكانت بالفعل من أعظم ما واجهه البشر من كوارث ومصائب، وقد انفرجت بفضل اللَّه، وبرحمته.. بعدما صبر هؤلاء الرسل خاصة أولى العزم منهم.

ويبدو أن حكمة اللَّه قد تجلت لعباده.. من الذين يطلعون على تفاصيل هذه الشدائد التى مر بها عباده المصطفون الأخيار.. ذلك لأجل أن يصبروا هم أيضًا حين يواجهون الكوارث والشدائد.. والتى لا تصل أبدًا فى قوتها وشدتها إلى درجة ما وصل إليه هؤلاء الأنبياء.. وتلك هى الغاية الكبرى والهدف الأسمى من وراء سرد القصص القرآنى.. فيما يخص هؤلاء الأنبياء والرسل..

وحين نستعرض معًا قصص هؤلاء الصابرين من عباد اللَّه من الرسل والأنبياء الذين اختبرهم اللَّه بالابتلاء، نجدهم عشرة.. هم بالترتيب الزمنى لظهورهم ورسالاتهم السماوية.. سيدنا آدم عليه السلام، سيدنا نوح عليه السلام، سيدنا إبراهيم عليه السلام، سيدنا لوط عليه السلام، سيدنا يعقوب عليه السلام، سيدنا يوسف عليه السلام، سيدنا أيوب عليه السلام، سيدنا موسى عليه السلام، سيدنا يونس عليه السلام وأخيرًا سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

ولقد رأينا - من قبل الحديث عن هؤلاء الأنبياء والرسل وما واجهوه من كوارث ومصائب وشدائد لا يستطيع أن يتحملها أناس غيرهم - ضرورة أن نتحدث عن الابتلاء بمفهومه الواسع لغويًّا ودينيًّا سواء فى كتب اللغويات أو فى القرآن الكريم وفى الأحاديث النبوية.. وذلك على سبيل تمهيد النفس والعقل لتقبل ما هو

آت من حوادث جرت فى حياة هؤلاء الأنبياء ، وصبروا ثم جزاهم اللّه بالشكر والنعم الكثيرة٠٠ كما رأينا كذلك من الضرورى بيان الفرق بين النبى والرسول ، مع إلقاء الأضواء المبهرة على حياة هؤلاء الذين اختصهم اللّه بالصبر ، وامتحنهم بالبلاء الشديد٠٠ وربما من أجل ذلك سوف نقترب بعض المسافات من قصص الأنبياء٠٠ كما صورها لنا القرآن الكريم وكما جاءت فى بعض الكتب المقدسة والتفاسير المختلفة ، وحتى تكتمل الفائدة ، ونخرج بالبيان الوافى الذى يعين الإنسان على اجتياز ما يمر به من محن وشدائد٠٠ واللّه هو الموفق ، والهادى إلى سواء السبيل٠٠٠

* * *

تمهيد

الابتلاء... فى القرآن والسنة

ونبدأ بالذى هو خير.. القرآن الكريم.. وما جاء به من آيات بينات بخصوص الابتلاء.. فى حياة البشر جميعًا.. إذ قال رب العالمين فى هذا الكتاب العزيز:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وبالنظر إلى الآيات السابقات.. ومع التمعن والتدبر.. نلاحظ أن اللّه - سبحانه وتعالى.. قد يبتلى عباده اختبارًا لهم.. وقد فضلنا أن نبدأ الحديث من هذه الزاوية رغم أن هذه الأوراق إنما خصصناها لحديث الابتلاء فى حياة الأنبياء والرسل من عباد اللّه.. حيث لم يفرق رب العالمين بين عباده فى هذا الأمر - بل وكما سيمر علينا - سنلاحظ أن عباد الرحمن من الأنبياء والرسل كانوا أكثر هؤلاء العباد على الإطلاق ابتلاء.. خاصة فى جانب الشدة والعسرة والضيق!.

ولقد حفل القرآن الكريم بالعشرات من صور الابتلاء فى حياة الإنسان.. خاصة الابتلاء المرتبط بالمصاعب والمشاكل والعقبات، دون الابتلاء بالخير.. ذلك لأن الابتلاء بالشدة يتطلب من الإنسان الصبر.. كما أن فيه اختبارًا للقدرات والنوايا والعزيمة والإرادة، وحسن استقبال الإنسان لما ينزله اللّه عليه من مصائب قد قدرها تقديرًا، بل وكتبت عليه من قبل أن يولد ويواجه الدنيا بحلوها ومرها.

ولعل من أكثر آيات القرآن الكريم التى تحدثت عن الابتلاء فى جانبه الشاق والمرتبط بالصبر.. ما ذكره رب العزة فى هذه الآيات..

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[البقرة: ٤٩] .

﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران: ١٦٥] .

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِن الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِن الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾
[آل عمران: ١٨٦]

﴿ وَلَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[المائدة: ٤٨] .

﴿ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾[الأعراف: ١٦٣] .

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[يونس: ١٠٧] .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا ﴾
[الكهف: ٧]

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[التغابن: ١١] .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحديد: ٢٢] .

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي ﴾[الفجر: ١٥، ١٦].

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١]

﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] .

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢]

ومن عجيب ما مر علينا من كلمات أنزلها رب العالمين على قلب نبيه الأمين محمد - عليه الصلاة والسلام .. أننا وغيرنا لم نلحظ .. وجود نوع من التفرقة فيما ينزله اللَّه تعالى من بلاء على عباده أجمعين .. بل ولقد يصيب اللَّه كل العباد بهذا الابتلاء .. بغية اكتشاف ما فى الصدور من صبر وتحمل وإيمان بما ينزله اللَّه من السماء بحلوه ومره وإن كان رب العزة قد اختص عباده الأصفياء من الأنبياء والرسل بطلب لم ينل شرفه إلا هم .. وذلك حين قال رب العالمين موجهًا حديثه إلى النبى الكريم محمد - عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وهذا يعنى أن الابتلاء مرادفه الصبر، فما بالنا إذا ما طلب ربنا من عباده الأصفياء أن يصبروا على ما أوذوا وما يقابلهم من شدة ومشاكل وأمام ذلك أليس من الواجب أن نصبر نحن البشر أيضًا على ما يواجهنا من صعاب مثلما صبروا؟!.. والاصطبار على الابتلاء .. خصص اللَّه تعالى له ألونًا من المكافآت .. ربما ينالها عبده الصبور فى الدنيا وربما فى الآخرة. وربما فى الدارين معًا.

ولسوف يمر علينا كيف نال هؤلاء الأنبياء المبتلون من المكافآت الطيبة فى حياتهم الدنيا وفى الآخرة جزاء ما صبروا وما تحملوا ، فقد تقبلوا قضاء اللَّه وقدره فى سكينة واستسلام .

وكذلك من عجيب الأمر فى هذا القرآن العظيم ٠٠ وجود العشرات من الآيات القرآنية التى تحض البشر على الصبر وتدعوهم إلى قوة التحمل - بل وتنبئهم بالفوز الكبير إذا ما صبروا - وكيف لا يصبرون وكل شىء بيد اللَّه تعالى ٠٠ الذى خلق السموات والأرض وخلق كل شىء ٠٠ بل وخلق البأساء والضراء ٠

ومن بين آيات الصبر العديدة التى يمتلئ بها المصحف الشريف نورد بعضها٠٠ حتى تكتمل الفائدة٠٠ ومن رأينا أن الابتلاء بمعناه الواسع ٠٠ لابد وأن يعقبه الصبر الذى حثنا عليه رب العالمين ٠٠ وهذا الصبر الذى إذا ما نالـه أحد منا٠٠ فقد فاز فوزا عظيمًا ، ويكفى عباد اللَّه شرفا أن اللَّه نبأهم بأنه مع الصابرين٠

ومن آيات الصبر نورد بعضها ، قال رب العالمين: ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾[البقرة: ١٥٣]٠

﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾
[البقرة: ٤٥]

﴿ **قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُو اللَّهِ كَمْ مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾[البقرة: ٢٤٩]٠

﴿ **الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ** ﴾
[آل عمران: ١٧]

﴿ **وَكَأَيِّن مِن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾[آل عمران: ١٤٦]٠

﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾
[آل عمران: ٢]

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١].

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣].

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وأيضًا لو تدبرنا هذه الآيات وأمعنا فى معانيها العقل والقلب.. سوف نعرف تمامًا كيف جعل رب العزة الصبر مكافأة طيبة لعباده الذين تحملوا البأساء.. ونجحوا فى الاختبار الذى نزل عليهم من السماء فى صور شتى.. بعضها إيذاء فى النفس كالابتلاء بالمرض والذل والهوان والغربة والضعف ، والبعض الآخر فى الأموال وفى الأولاد والثمرات.

هذه المكافآت الربانية لم يجعلها اللَّه لصنف من عباده دون الآخر بل جعلها لكل عباده الذين يبتلون بالمحن ، ويخرجون منها سالمين غانمين لإيمانهم باللَّه وبحكمته وحسن تدبيره.

ولقد أثبتت الأحداث أن الأنبياء والرسل من عباد اللَّه الصالحين كانوا هم أكثر عباد اللَّه تحملاً وصبرًا على المكاره والأزمات والمشاكل ، ولقد جزاهم اللَّه خير الجزاء نظير صبرهم الجميل. ولسوف يمر علينا أيضا قبس من نور هؤلاء الأنبياء الذين صبروا على ما واجهوه من صعوبات سواء بسبب دعوتهم إلى اللَّه بالحق ، أو بسبب كونهم بشرًا أراد رب العزة أن يختبر قوة عزيمتهم وحسن إيمانهم رغم كونهم من عباده المصطفين الأخيار.

وقد وصف اللّه تعالى بعض هؤلاء الرسل بأنهم من أولى العزم فى مقابل البعض الآخر الذين لم يكن لهم نصيب من هذا العزم ، وهناك بعض المفسرين والعلماء قد حددوا هؤلاء الأنبياء والرسل من أصحاب العزيمة القوية.. فقالوا: إن هؤلاء الرسل هم: نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد - عليهم أفضل الصلاة والسلام.

وكذلك منهم من حدد لنا عدد هؤلاء الأنبياء والرسل وفق ما جاء فى القرآن الكريم الذى ذكر أن عددهم خمسة وعشرون رسولاً ونبيًّا ذكرهم بأسمائهم منهم ثمانية عشر وردت أسماؤهم فى أربع آيات متتاليات فى سورة الأنعام ، كما ذكر هؤلاء العلماء أن عدد الرسل قد بلغ مائة وأربعة وعشرين ألفًا ، هؤلاء أنزل عليهم مائة صحيفة وأربعة كتب ، فقد أنزل على آدم عشر صحائف وعلى شيث خمسون صحيفة وعلى إدريس ثلاث صحف وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان[1].

ورغم هذا العدد الكبير سواء من الذين ذكرهم القرآن الكريم أو ما جاء به المفسرون والعلماء من اجتهادات.. فقد وقع اختيارنا كما أسلفنا من قبل على عشرة من أنبياء اللّه ورسله من الذين واجهوا البلاء بالصبر فى حياتهم وكان جزاؤهم عظيمًا فى الدنيا والآخرة.

ولسوف تزيد قناعتنا وأنتم معنا بطبيعة الحال بهؤلاء من الذين واجهوا الابتلاء.. حين نستعرض معًا أسماء الرسل والأنبياء.. وهم بالترتيب الزمنى.. وبترتيب ما سوف نتناوله فى هذه الأوراق: سيدنا آدم عليه السلام الذى ابتلاه اللّه فى نفسه وفى ولده ، وسيدنا نوح عليه السلام الذى ابتلاه ربه فى ولده وزوجته ، وسيدنا إبراهيم الخليل الذى ابتلاه ربه فى نفسه وفى ولده ، وسيدنا لوط الذى ابتلاه ربه فى نفسه ، وسيدنا يعقوب الذى ابتلى فى نفسه وفى أولاده ، وسيدنا يوسف الذى

---

(١) مناهج أولى العزم من الرسل فى تبليغ الدعوة - د. عبد الوهاب عبد العاطى.

ابتلى فى نفسه وفى أسرته ، وسيدنا أيوب الذى ابتلاه رب العزة فى ماله وفى نفسه وفى أهله ، وسيدنا يونس الذى ابتلاه ربه فى نفسه ، وكذلك سيدنا موسى الذى ابتلاه ربه فى نفسه أيضًا.. وأخيرًا سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - الذى ابتلاه ربه فى نفسه وفى ماله وفى أهله كذلك.

هؤلاء الصفوة من الرسل والأنبياء كانوا أشد الناس ابتلاء.. ورغم ذلك فقد كانوا - صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين - صابرين شاكرين ، محتسبين ، راضين بقضاء اللَّه فيهم.. يسكنون إلى اللَّه فى تضرع ودعاء.. ونراهم فى خشوع وخضوع وصبر ، دائمًا عاملين لوجه اللَّه تعالى ناهضين بالهمم على الدوام لا يفترون ولا يكسلون ولا يتواكلون[1].

وكما أوضحنا من قبل أن الابتلاء قرين الصبر.. فإننا نؤكد كذلك أن الوسيلة الوحيدة التى يلجأ إليها العبد سواء كان من الأنبياء والرسل أو من عباد اللَّه الصالحين من غير هؤلاء هى الدعاء.. إذ يجب على من تطوله أية بادرة من بوادر الابتلاء بأنواعه أن يصبر أولاً.. ثم يدعو ربه أن يكشف عنه ما أصابه!.

ولقد أثبتت حوادث التاريخ أن عباد اللَّه الصالحين والمصطفين الأخيار من الأنبياء ومن الرسل كانوا يتمسكون بالصبر على البلاء.. ثم يدعون اللَّه أن يخفف عنهم ما أصابهم.. أو يزيحه! ، وذلك لإيمانهم بأن الدعاء هو مخ العبادة ، وهو الوسيلة التى يناجون بها رب العزة فى علاه كى يخفف عنهم ما نزل بهم من بلايا!.

ولا شك أن مرحلة الصبر والدعاء تأتى حتمًا إذا ما آمن العبد بأن كل شىء بيد اللَّه ، بعد مرحلة الرضى.. وهى كما يقول العلماء: منزلة تفوق الصبر فى ميزان حسنات المبتلين يوم القيامة.

---

(١) الابتلاء والدعاء ، أحمد الموفى ، كتاب اليوم.

وكما حفل القرآن الكريم بالعديد من الآيات الكريمة فيما يتعلق بالابتلاء والصبر عليه ، كذلك حفلت السنة النبوية المطهرة بالابتلاء أيضًا حيث صور لنا رسولنا الكريم ﷺ حالات الابتلاء فى العديد من الأحاديث النبوية ، ومعظمها مرتبط فى معانيه بالصبر والرضا والخوف من عذاب اللَّه إذا ما غضب العبد مما أصابه من الابتلاء المقدر عليه سلفًا.

ومن أشهر ما قيل بشأن الصبر والبلاء ما جاء فى هذه الأحاديث النبوية الشريفة والتى جمعت فى كتاب «المنتخب من السنة» المجلد الأول... فى الباب التاسع والعشرين تحت عنوان «ابتلاء المؤمن».

«عن أبى هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول اللَّه ﷺ: «لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده ، وماله حتى يلقى اللَّه وما عليه خطيئة».

«وعنه أيضًا ، أن النبى ﷺ: سُئل أى الناس أشد بلاء؟ قال: «الأمثل فالأمثل...».

«وعن أبى عبد اللَّه بن كعب ، عن أبيه عن النبى ﷺ قال: مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيئها الريح مرة وتعللها مرة ، ومثل المنافق كالأرزة ، لا تزال حتى يكون انجفافها مرة واحدة» والمقصود بخامة الزرع كما جاء فى هذا الحديث: القصبة اللينة من الزرع ، وتفيئها الريح يعنى تحركها وتميلها يمينًا وشمالا ، والمقصود بالأرزة شجرة الصنوبر.. أما انجفافها مرة واحدة بمعنى انقلاعها وسقوطها دفعة واحدة.

والمعنى: أن المؤمن كثير الآلام والمحن فى بدنه وماله وأهله وكل ذلك يمر عليه ، وهو ثابت الإيمان فيكفِّر اللَّه سيئاته ويرفع درجاته ، وأما الكافر فقليل المصائب بالنسبة للمؤمن ، وإن وقع له شىء منها لا يتحمله ولا يصبر عليه ، وربما كانت سبب انتحاره ، ولا يكفر اللَّه له سيئاته ، بل يأتى بها يوم القيامة كاملة.

وفى كتاب رياض الصالحين للإمام الحافظ محيى الدين أبى زكريا يحيى ابن شرف النووى.. جاء ذكر الأحاديث النبوية عن البلاء والابتلاء.. فى باب الصبر.. ومما جاء فى ذلك:

« عن أبى يحيى صهيب بن سنان ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ».. رواه مسلم.

« وعن أبى سعيد وأبى هريرة - رضى اللَّه عنهما - عن النبى ﷺ قال: ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر اللَّه بها من خطاياه » متفق عليه.

« وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « من يرد اللَّه به خيرًا يُصب منه ».. رواه البخارى.

« وعن أبى عبد الرحمن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: كأنى أنظر إلى رسول اللَّه يحكى أن نبيا من الأنبياء صلوات اللَّه وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: اللَّهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ».

« وعن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إذا أراد اللَّه بعبده خيرًا عجل له العقوبة فى الدنيا، وإذا أراد بعبده شرًّا أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة ».

وقال النبى ﷺ: « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن اللَّه تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط » رواه الترمذى، وقال: حديث حسن.

والحديث عن البلاء والابتلاء لا يكتمل فى معناه المطلوب.. إلا بالحديث عن المعنى اللغوى والمعنوى لهذين اللفظين!.. فالبلاء والابتلاء لهما معنى

واحد.. وهو الاختبار أو الامتحان.. ويكون بالخير والشر ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء : ٣٥] ولكن المراد هنا هو الابتلاء بالشر من مرض ومحن ومجاهدة عدو وخلافه. وهو سنة اللَّه فى خلقه وهو واقع على الناس جميعًا... أما البلاء والابتلاء فى معناه المعنوى فيقصد به زاويتان. الأولى أن الابتلاء غير محدد المدة.. ولا معروف النتائج مسبقًا!.. فقد يمكث ساعة أو يومًا أو شهرًا أو سنة أو غير ذلك!..

والإنسان حين يأتيه البلاء لا يعرف مقدار ما سوف يصيبه من خسائر أو مشاكل أو ما سوف يواجهه من صعوبات!..

والزاوية الثانية وهى الأكثر أهمية فى التعريف المعنوى للبلاء.. فنقصد بها أن البلاء يأتى فجأة وبلا مقدمات!.. ولذلك يطلق عليه الكثير من المفسرين ومن العلماء ألفاظًا كثيرة. مثل الكارثة والمصيبة والفجيعة.. نجانا اللَّه من هولها بالصبر والرضا وقوة التحمل حتى ننال جزاءها سواء فى الدنيا أو فى الآخرة.

ولنا فى سير الأنبياء والرسل الأسوة الحسنة التى تعيننا على مثل هذا التحمل.. لأنهم كما وصفهم رسولنا - الكريم - هم أكثر الناس ابتلاء فى الدنيا ، وربما كان ذلك لحكمة يعلمها اللَّه - رب العزة - وحتى يكونوا أمثلة حية لغيرهم من بنى البشر.. الذين يتعرضون فى حياتهم لمثل هذه البلايا.. ولا نجاة منها إلا بالصبر والرضا ، والتسليم ودعاء اللَّه أن يرفع عنا ما يصيبنا من بلايا سواء فى النفس أو فى الولد أو فى الأموال أو فى الثمرات!.

وختامًا لهذا التمهيد الذى سوف يعقبه حديث الشدة والبلاء فى حياة الأنبياء والرسل. سوف نسوق فى عجالة.. الفروق اللغوية بين ما هو المقصود بالنبى وبالرسول.. من واقع ما سرده غيرنا من المفسرين ومن المؤرخين ومن دارسى التاريخ.

فالنبى هو من نُبِّئ ، والنبأ هو الخبر العظيم الشأن ، ويصح معنى الفاعل فهو نبى أى مُنَبِّأ عن اللَّه تعالى ، وبمعنى المفعول؛ لأن اللَّه أنبأه ما يقول فهو نبى ، وجمعها أنبياء٠ وبعض الأنبياء وصفوا أيضًا بأنهم رسل مرسلون؛ لقوله تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا ﴾

[مريم: ٥٤]

أما الرسول فقد قيل: إنه هو الذى أنزلت عليه رسالة ، أى كتاب من السماء مثل إبراهيم وموسى وداود وعيسى ومحمد - صلوات اللَّه عليهم أجمعين -٠

ولكن بعض الرسل لم ينزل عليهم كتاب ، مثل إسماعيل ولوط ويونس ، وكانوا جميعًا من المرسلين٠٠ ولم يأتوا بشريعة جديدة أو كتاب جديد ، ومن ثم قالوا : إن الرسل هم من كانوا ينزل عليهم الرسول الأمين جبريل عليه السلام٠٠ وأما الأنبياء ، فكانوا ممن يوحى إليهم بالرؤيا الصادقة٠ وكذلك قيل : إن الرسول هو المبتدئ بوضع الشرائع والأحكام ، والنبى هو الذى يحفظ شريعة غيره٠٠ لذلك قالوا: إن كل رسول نبى وليس كل نبى رسولا[1]٠

* * *

(١) قصص الأنبياء والتاريخ ، د٠ رشدى البدراوى ، جـ١٠

١- سيدنا آدم عليه السلام

خلق آدم

سيظل القرآن الكريم - معجزة الله الكبرى - هو الدليل الأول والأخير والأكيد فيما جاء من روايات عن خلق آدم - عليه الصلاة والسلام - وما ذكرته بقية الكتب المقدسة الأخرى إنما تعرض للزيادة والنقصان حسب مقتضيات كل زمان ، وحسب أمزجة الرواة أنفسهم.

ولقد وردت قصة آدم عليه السلام الذى خلقه رب العالمين بيديه.. فى سور قرآنية متعددة منها سورة البقرة - الأعراف - الحجر - الإسراء - الكهف - ص .

ومن هذه الآيات - على حد قول شيخ الإسلام الدكتور/ محمد سيد طنطاوى - ما فيها حديث عن خلقه عليه السلام وأخرى تحدثت عن أمر الملائكة بالسجود له ، وثالثة حكت موقف إبليس من هذا الأمر ، ورابعة ذكرت استخلاف آدم فى الأرض ، وخامسة تحدثت عن إسكانه فى الجنة ، وسادسة ذكرت إغواء إبليس له وما ترتب على ذلك من عقوبات.. وبعض هذه السور وفقًا للرأى السابق قد أوضحت معظم هذه العناصر فى قصة واحدة ، وبعضها تحدث عن عنصر أو عنصرين أو أكثر منها ولكن بأسلوب له مزاياه وتأثيره وتوجيهاته ، وتتقن فيه البلاغة فى أبهى صورها وأسماها وأحكمها[١].

وما يعنينا وفق سياق موضوع هذه الأوراق من حيث الابتلاء.. هو الحديث

---

(١) القصة فى القرآن - د. محمد سيد طنطاوى ، الجزء الأول.

بشيء من التفصيل عن خلق آدم عليه السلام وخروجه من الجنة باعتباره الإنسان الأول في هذا الكون ، ومن بعده زادت ذريته حتى ملأت الأرض وستبقى إلى قيام الساعة، وفي خلقه تتجلى حكمة الخالق العظيم حيث ذكر الحكماء ومن ذلك قولهم: بأن اللَّه خلق الخلق ليظهر وجوده ، ولو لم يخلق لما عرف أنه موجود ، وأيضًا ليظهر كمال علمه وقدرته بظهور أفعاله المتقنة المحكمة ؛ لأنها لا تأتي إلا من لدن قادر حكيم ولكي يعبد فإنه تعالى يحب عبادة العابدين ويحثهم عليها ، وليظهر إحسانه لأنه محسن فأوجدهم ليحسن إليهم ، وليتفضل عليهم فيعامل بعضًا بالعدل ، وبعضًا بالفضل.

وبالبحث والتنقيب اكتشفنا أن هناك مئات من كتب التراث والتفسير التي اهتمت اهتماما بليغًا بقصة آدم عليه السلام.. ومنهم من التزم بصريح نص القرآن ومنهم من زاد وأضاف!.

وبشكل عام فقد ذكر رب العالمين في كتابه العزيز عن خلق آدم عليه السلام : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ ولفظ الإنسان هنا وفق الإجماع يشير إلى أبي الإنسانية سيدنا آدم عليه السلام باعتباره أول خلق اللَّه من بني البشر.

ويؤكد الشيخ محمد متولي الشعراوي في السياق نفسه أن آدم خُلق بيد اللَّه مباشرة فكلنا مخلوقون بقانون الخلق ، ولابد أن يجتمع رجل وامرأة ليتم الخلق وفقًا لسنة اللَّه في خلقه ، ولكن آدم خلقه اللَّه سبحانه وتعالى مباشرة ، وفي ذلك يقول رب العزة ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ إذن فالتسوية من عند اللَّه والروح من عند اللَّه.

وهناك حديث شريف رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن خلق آدم عليه السلام.. وتوقيت ذلك الخلق.. وجاء في هذا الحديث : « أخذ رسول اللَّه ﷺ بيدي [أي بيد راوي

الحديث] فقال: خلق اللَّه التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق ، فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر والليل » أخرجه مسلم والنسائى..

وفى السياق نفسه هناك حديث شريف آخر قال فيه رسول اللَّه ﷺ : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ». وبخلاف ذلك روى أبو هريرة رضي الله عنه حديثًا شريفًا ثابتًا عن النبى ﷺ قال فيه عن شكل آدم يوم خلقه اللَّه تعالى: قال رسول اللَّه ﷺ : « خلق اللَّه آدم على صورته. طوله ستون ذراعًا ، ثم قال : اذهب فسلم على أولئك النفر وهم نفر الملائكة كانوا جلوسًا ، فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فذهب فقال: السلام عليكم.. فقالوا : السلام عليكم ورحمة اللَّه ، فزادوه: ورحمة اللَّه ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فى طوله ستون ذراعًا ، فلم تزل الخلق تنقص بعده حتى الآن » رواه البخارى ومسلم.

وبطبيعة الحال لا يأتى ذكر خلق آدم عليه السلام ، دون ذكر زوجه حواء ، والتى لولا وجودها ، لما وجد الوعاء الذى فيه يستقر الإنسان منذ كونه نطفة وحتى يوم ميلاده!. وهناك أيضًا كلام كثير أورده المفسرون عن خلق حواء ، والغالب من هذه الآراء فى هذا الموضع قول المفسرين: إنه لما أسكن اللَّه تعالى آدم عليه السلام الجنة كان يمشى فيها وحشيا فلم يكن له من يجالسه ويؤانسه ، فألقى اللَّه تعالى عليه النوم فنام فأخذ اللَّه ضلعًا من أضلاع آدم من شقه الأيسر يقال له القيصرى ، فخلق منه حواء من غير أن يحس آدم بذلك ولا وجد له ألمًا ، ولو أولم آدم من ذلك لما عطف رجل على امرأة.. ثم ألبسها من لباس الجنة وزينها بأنواع الزينة ، وأجلسها عند رأسه فلما هب آدم من نومه رآها عند رأسه[1].

---

(١) عرائس المجالس : للثعلبى.

ورغم هذه التفاسير المختلفة لخلق حواء إلا أن شيخ الإسلام الراحل الإمام محمد متولى الشعراوى قال فى مطلع حديثه عن خلق حواء متسائلاً : وهل هى من ضلع آدم؟ أم أنها مخلوقة بنفس أسلوب خلق آدم؟٠

ثم قال: إن اللَّه سبحانه وتعالى حينما تعرض لقصة آدم عليه السلام فى سورة البقرة لم يوضح كيف تم خلق حواء ولكن الخالق الأعز الأكرم أدخل حواء فى خطابه لآدم عليه السلام: ﴿ وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[البقرة: ٣٥]٠

ويوضح لنا رب العالمين وفق رؤية الشيخ الشعراوى أن كل خلق من خلقه إنما خلق من زوجين وذلك فى قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[النساء: ١]٠

وعلى ذلك فليس لأحد منا أن يقول: إن حواء كانت ضلعًا من آدم ؛ لأنه قد يقول قائل - وله الحق - : ولماذا نأخذ معنى خلق حواء من نفس آدم بمثل هذا التصور؟!٠٠ وبالتالى من الجائز أن تكون مخلوقة من مثل جنس آدم[1]٠

ويستند الشيخ الشعراوى فى هذا التفسير الجرىء٠٠ إلى قول اللَّه تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ، فلو أن حواء كانت ضلعًا من آدم لقال الحق « جعل منها زوجا » ، ذلك لأن الجعل يعنى الأخذ من نفس المادة وصناعة ما يريد ، إذن معنى قول اللَّه تعالى: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ هو تعبير عن خلق جديد مستقل٠ أى أنه خلق حواء مثلما خلق آدم ، وكما أوضح لنا الحق أنه خلق آدم من طين ، فكذلك خلق حواء٠

---

(١) قصص الأنبياء: محمد متولى الشعراوى ، جزء ١ ٠

الابتلاء فى النفس

قال اللّه تعالى فى سورة طه ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۞ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى ۞ فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۞ إِنَّ لَكَ أَلا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى ۞ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى ۞ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى ۞ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۞ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ۞ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ﴾ [طه: ١١٥ - ١٢٣].

فى بداية الأمر.. كان علينا لكى نعيش تلك الحالة النفسية التى ابتلى بها آدم عليه السلام ، بعد طول عيش فى رغد فى جنة طيبة.. وذلك حين أمره رب العزة بأن يترك هذه الجنة التى عاش بها وزوجه ، ويهبط إلى الأرض ، كبداية لابتلائه بالمشقة لابد لنا وأن نعيش حالته النفسية الأخرى فى ظل تلك الجنة التى عاش بها فى نعيم مقيم وحياة رغدة كلها أمان واطمئنان ورزق يأتيه رغدًا بلا عناء أو تعب!.

هذه الحالة صورها لنا القرآن الكريم خير تصوير.. فقال اللّه تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾.

تلك هى البداية التى ارتبطت بالنعيم ، حيث كانت حياة آدم وحواء هى البراءة المطلقة والقدرة التى ليس لها حدود ، وفى هذه الجنة عرف آدم معنى السعادة النفسية العميقة حين صار مع حواء بداخلها.. وكان اللّه قد سمح لهما

بأن يقتربا من كل شيء وأن يستمتعا بكل شيء ، ما عدا شجرة واحدة لعلها شجرة الألم أو شجرة المعرفة[1].

وفى هذه الجنة كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم أيضًا.. لم يعرف آدم عليه السلام ولا زوجه الجوع ولا العرى ولا الظمأ ولا التعب ولا النصب.. فقد كانت حياتهما رغيدة فعلاً بكل المعانى التى نعرفها والتى لا نعرفها.. ثم جاءت غواية الشيطان له ولزوجه كى تضع حدا لهذا العيش الرغيد ، وبالتالى انتقل إلى حياة أخرى فيها الشقاء والتعب والخوف والعداوات والحروب ، وأشياء أخرى كثيرة عرفنا بعضها ولا يزال البعض الآخر من هذه الأحداث فى علم اللّه إلى يوم القيامة.

من هنا جاء قول اللّه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾. وفى تفسيره لهذه الآية قال الدكتور محمد سيد طنطاوى: « قال اللّه تعالى: لقد عهدنا إلى آدم وأوحينا ألا يأكل من شجرة معينة من قبل أن نخبرك بذلك.. فنسى العهد الذى أخذه على نفسه بعدم الأكل منها.. ولم نجد له عزيمة صادقة فى التذكر لما أمرناه به[2].

ولإحساس آدم عليه السلام بحجم المصيبة والبلية التى أصابته من جراء هذه المعصية ، وهذا النسيان.. قوله على حد ما نقله إلينا ابن عباس.. عندما صدر الأمر الإلهى بخروجه من الجنة هو وزوجه وثالثهما الشيطان: « رب كنت جارك فى دارك ليس لى رب سواك ولا رقيب دونك آكل فيها رغدًا وأسلك حيث أحببت فأهبطتنى إلى هذا الجبل (جبل سرنديب بأرض الهند).. وكنت أسمع صوت الملائكة وأراهم كيف يحفون بعرشك وأجد ريح الجنة وطيبها ثم أهبطتنى إلى الأرض وحطتنى إلى ستين

---

(١) أنبياء اللّه ، أحمد بهجت.

(٢) القصة فى القرآن الكريم. د. محمد سيد طنطاوى ، جـ١ .

ذراعًا فقد انقطع عنى الصوت والنظر وذهبت عنى رائحة الجنة ، فأجابه تعالى: بمعصيتك يا آدم - فقال آدم : ذلك بك يا رب »[1].

وما نود أن نشير إليه فى هذا السياق أيضًا أن أكبر ابتلاءات آدم فى حياته ومن بعد خلقه قد تمثل فى عصيانه لرب العالمين.. واتباعه وزوجه غواية الشيطان.. هذه الغواية كان مصدرها للأسف حرص آدم عليه السلام ، على نيل درجة الخلد ، بالإقبال على الأكل من تلك الشجرة المحرمة!.

وحينما وقع هذا الأمر الذى قدره رب العالمين مسبقًا ظهرت أولى بوادر هذه المصيبة وهذه البلية ، فشاهد عورته وزوجه كذلك! ، كما أصبح فى حاجة إلى مكان يفرغ فيه ما فى جوفه من آثار تناوله طعام هذه الشجرة!.

ولقد بين لنا رسول اللَّه ﷺ حال آدم عليه السلام بعد ارتكابه لهذه المعصية بقوله فى حديث شريف رواه على بن عاصم عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن اللَّه خلق آدم رجلاً طوالاً كثير الشعر كأنه نخلة سحوق. فلما ذاق الشجرة سقط عنه شعره وأول ما بدا منه عورته ».

وفى تحليل لطيف للأستاذ الدكتور رشدى البدراوى عن هذه الحالة التى كان عليها سيدنا آدم - وهو تحليل محمود على كل حال - قال فيه: « وإذا كان ذلك بالنسبة لآدم فلابد أن شعر حواء كان طويلاً ومسترسلاً يغطى كل جسمها ، وقد يكون فى الشجرة التى أكلا منها مادة جعلت شعرهما يسقط ، أو أن شعرهما سقط من هول ما اقترفاه من معصية اللَّه ، وبالتالى بدت لهما عوراتهما[2].

---

(١) قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس - للثعلبى.

(٢) المصدر السابق ، د. رشدى البدراوى.

وكذلك أورد لنا الدكتور البدراوى رأيا تفسيريا آخر قال فيه: ما حدث هو أن أكل ثمار الجنة التى كانت مباحة لهما كان لا يتبقى منه شىء من الفضلات فى أمعائهما فكانا لا يحدثان أى بول أو براز. فلما أكلا من الشجرة بدأت حاجتهما إلى التبول وإلى الغائط ، ورأيا النجاسة من سوءاتهما فحاولا إخفاءها.

وعندما سئل الشيخ محمد متولى الشعراوى عن إمكانية وجود مثل هذه المأكولات التى لا ينتج عنها فضلات داخل جسم الإنسان - مثلما كان حال آدم عليه السلام فى الجنة قبل المعصية - قال: إن هذا حق.. وضرب مثالاً حيويا على ذلك بالطفل الصغير الذى يتغذى داخل بطن أمه بدون إخراج فضلات.

ولما بانت سوءات آدم وزوجه من بعد ارتكاب معصية الأكل من الشجرة المحرمة ، كمرحلة أولى من مراحل إصابته بالابتلاء فى النفس ، لحقت به المرحلة الثانية ، عندما أمره رب العالمين بالهبوط من الجنة إلى الأرض التى سوف يشقى فيها هو وذريته ، ويعرى ويكد ويتعب ، بل ويجاهد نفسه والشيطان ، ويظل من خلال ذريته على هذه الحالة من الصراع إلى يوم القيامة.

ولقد ظهرت بوادر ونتائج هذا الابتلاء سريعًا بعدما هبط آدم من الجنة حيث ذكر الرواة فى معظم المصادر الإسلامية أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض وأصيب جسده من هواء الأرض وشعر به اشتكى وحشة جسده ، وكم قد اعتاد هواء الجنة فشكا ذلك لجبريل ، فقال : إنك تشكو العرى فأنزل اللّه عليه ثمانية أزواج وهى المذكورة فى سورة الأنعام ، من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ، ثم أمره أن يذبح كبشًا منها فذبح ، ثم أخذ صوفه فغزلته حواء ونسجه آدم ، فجعل منه جُبة لنفسه وجعل لحواء درعًا وخمارًا فلبساه وبكيا على ما فاتهما من لباس الجنة[1].

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبى. مصدر سابق.

ولنا أن نتصور بمفهومنا المعاصر، تلك الحالة النفسية السيئة التى كان عليها آدم عليه السلام عندما خرج من الجنة، ونزل إلى الأرض وحيدًا، شقيا ومتعبًا.. خائفًا، لا يعرف من أمر هذه الأرض أى شىء، ولا كيف يتعايش مع ظروفها، ولولا صبره وقوة تحمله لتلك الحياة الجديدة، ومساندة رب العزة له فى هذه المحنة، لما عمرت الأرض وزاد الخلق، بل وربما ضاق آدم عليه السلام بهذا المكان الجديد الذى وجد نفسه وزوجه فيه بعد طول عيش طيب فى الجنة.

وبعد إحساس آدم بالبرد الذى أصابه، ولجوئه للدعاء إلى الله بأن ينزل عليه ما يستر جسده اتقاء شر هذا البرد.. أخذ يشعر وزوجه بالجوع!.

ولما لم تكن ثمار الأرض فى متناول يده آنذاك كثمار الجنة، وبالتالى كان عليه أن يتسلق الأشجار ليصل إلى تلك الثمار. وكذلك أصابه الظمأ، فأخذ يبحث عن الماء حتى اهتدى إلى نهر أو بئر، وشعر بلفح الشمس وحرها فاحتمى بظل الأشجار.

وبعد أن استقر آدم عليه السلام فوق الأرض، وأخذ يألف هذه الحياة الجديدة التى فرضت عليه فرضًا مع قسوتها وشدة ما بها من آلام وابتلاءات، جاءته المصيبة الثالثة، وهى الأهم فى تصورنا فيما ابتلاه رب العالمين.. وذلك حين أخذ الشيطان يلاحقه وزوجه، بل وذريته فى كل مكان يرتاده، وأخذ يوسوس له تارة بالعصيان وتارة بالهموم. وكان سبيل آدم للفوز فى هذه المعركة، هو تمسكه بقضاء الله وإيمانه بعدالته وقدرته. وأنه قد تاب عليه، وبالتالى أخذ يُعد العدة جيدًا للفوز على الشيطان اللعين.. الذى حين فشل فى محاربة آدم عليه السلام لجأ إلى أولاده حيث ظل يسعى وراء أحدهما حتى ارتكب أول جريمة قتل فوق سطح الأرض. وتلك كانت المصيبة أو البلية العظيمة الأخرى فى حياة آدم عليه السلام.. وقد اختبره الله بها فى ولديه.. بل واختبر بها كل ذريته من بعده.

والقرآن الكريم قد بين لنا بدايات هذه المعركة الشرسة بين الشيطان وبين الإنسان منذ أن رفض إبليس السجود لآدم عليه السلام من بعد خلقه!. وقوله وفق ما جاء بالقرآن الكريم: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾.

ليس هذا فقط.. بل ولقد أعلن الشيطان نفسه عن استعداده لمواصلة هذه المعركة مع أبناء آدم إلى يوم القيامة... فقال وفق ما جاء بالقرآن الكريم: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ* ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِن خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾.

وبالفعل لم يكذب الشيطان فى هذا الوعيد.. فأخذ فى محاربة آدم وذريته وظل على ذلك حتى يومنا هذا ، ومازال الإنسان من ذلك اليوم يعيش فى ظل هذه الحروب التى جرت عليه ويلات ومصائب كثيرة فى نفسه وفى أهله وفى ماله!.

الابتلاء فى الولد:

لقد وردت قصة ابنى آدم فى آيات كريمات من سورة المائدة.. وفيها يقول رب العزة سبحانه وتعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ۞ لَئِن بَسَطتَّ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ۞ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ۞ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ۞ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣١].

فبعد أن استقر سيدنا آدم عليه السلام على وجه الأرض ، متقبلاً قضاء الله وقدره

بالرضا والصبر على ما ابتُلى - كما سبق أن أوضحنا - أخذ يمارس حياته البشرية هو وزوجه.. وكان من أولى خطوات هذه المعيشة: الإنجاب!. إذ أوحى اللَّه إليه أنه سوف يكون أبا لكل البشرية من بعده.. ويكون إنجابه للأولاد والذرية هو أساس إعمار هذه الأرض.

ولقد ذكر السلف الصالح روايات كثيرة عن ظروف هذا الإنجاب وطريقته. فذكر السدى عن أبى صالح، عن ابن عباس وعن مرة بن مسعود عن ناس من الصحابة: أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الآخر.

وقال أهل العلم بقصص النبيين وأخبار الماضين: إن حواء كانت تلد لآدم توأمين فى كل بطن غلامًا وجارية، وكان جميع من ولدته حواء أربعين ذكرًا وأنثى فى عشرين بطنًا. أولهم «قابيل» وتوأمته «أقلما» وآخرهم «عبد المغيث» وتوأمته «أمة المغيث»، ثم كثر اللَّه فى نسل آدم كما قال رب العزة: ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾[1].

وقال ابن عباس: لم يمت آدم حتى رأى من ولده وولد ولده أربعين ألفًا.

وبطبيعة الحال لم تكن مشاغله وحياته والبحث عن الرزق الحلال تلهيه عن إسداء النصح لهؤلاء الأولاد والأحفاد بضرورة اتباع منهج اللَّه، والابتعاد عن طريق الشيطان، فكان منهم من عمل بنصائحه، وأعرض البعض. وقد وقع أحد أبنائه فريسة سهلة لغواية الشيطان واتباع منهجه.. مما عرضه لارتكاب خطأ كبير فى حق أخيه عندما طوعت له نفسه أن يقتله!.

وفى ظل هذا الحدث الغريب، واجه آدم عليه السلام الابتلاء الجديد فى ولديه.. أحدهما قتل الآخر.. ولم يكن أمامه أيضًا إلا الصبر وقبول قضاء اللَّه فى رضًا وعدم جزع. ولقد حدثنا القرآن الكريم بشىء من التفصيل عن هذه الجريمة التى وقعت

---

(١) قصص الأنبياء، عرائس المجالس للثعلبى، مصدر سابق.

لأول مرة فوق سطح الأرض ، ولنا أن نعيش تلك اللحظات الحزينة التى عاشها هذا النبى الكريم.. حين بلغه نبأ هذه الجريمة.. ونتصور تلك الحالة النفسية السيئة التى كان عليها آدم عليه السلام ، فى ظل هذا الجنون الذى وقف وراءه بشدة الشيطان الرجيم. إنها كانت بلا شك مصيبة كبيرة وبلية عظيمة واختبارًا من اللّه لا يقدر على تحمله إلا هؤلاء المصطفون الأخيار من عباد اللّه من الأنبياء والرسل. ولا نعرف بالضبط.. هل وقعت بعد الخروج من الجنة مباشرة أو بعد هذا التاريخ بسنوات!.. ومهما كان هذا التاريخ.. فإن هذا النبى الكريم وجد نفسه وفى خضم مهمته المقدسة التى كُلف بها لإعمار الأرض.. داخل مصيبة جديدة أودت فى النهاية بحياة أحد ولديه.. وقضت على الثانى بالعقاب الشديد والتشرد..

إن الوقوف.. بلا شك على تفاصيل هذه الجريمة ، سوف يقربنا أكثر من تفاصيل هذا الابتلاء الجديد فى حياة آدم عليه السلام.. وهو النبى الكريم.. وما نود أن نؤكده فى هذا السياق.. أنه على الرغم من أن القرآن العظيم قد بين أركان هذه الجريمة وأسبابها ودوافعها.. فإن العديد من المفسرين ومن المؤرخين أيضًا لم يتوقفوا عند حدود كلمات أو معانى آيات القرآن الكريم.. بل ذهبوا هنا وهناك لأجل إبراز بعض الجوانب المباشرة وغير المباشرة فى قصة قابيل وهابيل.. حتى أنهم فيما ذهبوا إليه لم يتركوا أية تفاصيل ولو بسيطة فى هذه القصة.. كما حاولوا فى السياق نفسه تحديد ذلك الزمان الذى وقعت فيه هذه الجريمة.. وتوقيت ميلاد هذين الأخوين.. وكلها اجتهادات لا تضيف فى تصورنا أى جديد عما ذكره القرآن الكريم.. وهى اجتهادات فى الواقع منقولة عن الكتابات الإسرائيلية ، وتفاسير أهل الكتاب.

ولقد أحسن شيخ الإسلام الإمام الراحل الدكتور عبد الحليم محمود حين اكتفى فى تفسيره الآيات القرآنية المرتبطة بقصة قابيل وهابيل بظاهر الكلمات التى تحدثت عن هذه القصة ، والتى وردت بالقرآن الكريم فقال: « كان لآدم ابنان:

هما قابيل وهابيل ، وكان قابيل هو الأكبر قاسيا بقلب غليظ الطبع لا يستشعر التقوى ، ولا يتحرك للصالحات ، وكان هابيل هو أصغرها على العكس من ذلك.. تقيا صالحًا مرضيا عنه من اللَّه تعالى.. وتنافسا فى تقديم ما يتقرب به إلى اللَّه ، وقدم قابيل شيئًا تافهًا رديئًا لا قيمة له ، وقدم هابيل من أنفس ما عنده فتقبل اللَّه من هابيل ، ولم يتقبل من قابيل ، فحز ذلك فى نفس قابيل »[1].

وكانت النتيجة التى وقف وراءها الشيطان بقوة.. حيث طوعت له نفسه قتل أخيه وهو ابن أمه وأبيه ، فأضله وأصبح بذلك من شيعة إبليس فى الشر والإثم.

ويتساءل الدكتور عبد الحليم محمود؟: ما سبب هذه الجريمة: وفى إجابته يقول: إن ظاهر النص القرآنى يفيد بأن السبب هو حقد النفوس الخبيثة على النفوس الصافية الطاهرة ، وهو سبب يوجد فى كل زمان ومكان وهو سبب عام يدخل فى نطاقه أسباب خاصة.

ولكن ماذا حدث بعد أن علم آدم عليه السلام .. بوقوع هذه المصيبة فى أولاده؟!.. إن ظاهر القصة القرآنية والعديد مما ذكره المفسرون يوضح لنا أن آدم عليه السلام كان غير موجود فى المكان الذى وقعت فيه هذه الجريمة!.. وربما كان مشغولاً فى جمع الثمار والزروع ، والاجتهاد فى الرزق مع بقية أولاده وذريته!.

ولكنه حين حضر وعرف بهذه المصيبة كان ابتلاؤه آنذاك عظيمًا.. وهذا يفهم جيدًا من بعض الروايات التى سردها سواء المفسرون أو المؤرخون.

ومما قيل فى شأن حال سيدنا آدم عليه السلام حين عرف بخبر هذا الابتلاء: إنه لما قتل قابيل هابيل مكث آدم مائة سنة لا يضحك ، وقيل أيضًا إنه لما صبر على هذه البلية الجديدة فى حياته ، وهب اللَّه له سيدنا شيثًا الذى ولد بعد هذه الجريمة بخمسين سنة.

---

(١) مع الأنبياء والرسل- الإمام الدكتور عبد الحليم محمود.

هذا النبى من ولد آدم عليه السلام وقد علمه الله ساعات الليل والنهار، وعبادة الخلق فى كل ساعة منها، كما أنزل الله عليه خمسين صحيفة، وكان وصى آدم وولى عهده.

وقيل: إن عمر آدم عليه السلام حين وُلد آخر أبنائه - النبى شيث - مائة وثلاثون سنة، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة، وكان عمر شيث يوم ولدت له أنوش مائة وخمسا وستين، وعاشا بعد ذلك ثمانمائة سنة وسبع سنين، وولد له بنون وبنات غير ابنته أنوش.

ومعنى كلمة شيث « هبة الله »، وكانا أسمياه ذلك؛ لأن الله رزقهما به بعد مقتل هابيل، وفى حديث صحيح لأبى ذر عن رسول الله ﷺ: « إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف، على شيث خمسين صحيفة »[1].

بل وأكثر من ذلك قال المفسرون والرواة: إن الله أراد أن يعوض آدم عليه السلام بفقدان ابنه هابيل.. بعدما رزقه بالنبى شيث.. حيث جعل من ولده هذا خليفة من بعده.

ومما يروى فى هذا الشأن ما قالوه بسندهم: عن محمد بن إسحاق قال: ولما حضرت الوفاة آدم عهد إلى ابنه شيث وكتب إليه وصيته وأمره أن يخفيها عن ولده قابيل، حيث خاف عليه أن يقتله حسدًا بعدما خصه بالعلم!.

هذا عن أمر هابيل المقتول.. وأمر شيث الذى رزق به آدم عوضًا عن ابنه.. فما بالنا بالذى وقع للقاتل قابيل؟!. فقد قيلت فى شأنه أقاويل كثيرة.. ومن أشهرها أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم أن قتل أخاه فعلقت ساقه إلى فخذه وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت.

وأوردت بعض الروايات الأخرى الشىء الكثير عما حدث لقابيل جزاء

---

(١) قصص الأنبياء طبعة جديدة لابن كثير تحقيق محمد عبد الملك الزغبى.

جريمته وكلها تقريبا منقولة من تفاسير أهل الكتاب ، وكلها أيضًا تثير فى النفس الشجن والألم على ما أصاب نبى اللّه آدم من ابتلائه فى ولديه.. أحدهما قتل ظلمًا والثانى أُبعد وشُرد وعُذب ، ودخل النار عقابًا على ما اقترفت يداه من جريمة.. بل وارتبطت بهما عبر التاريخ قصص الجريمة.. كما أصبح قابيل عنوانًا لكل ظلم يرتكبه بنى الإنسان ، ورائدًا من رواد الجريمة الأوائل فى البشرية. وهذا معناه ببساطة أن آدم عليه السلام سوف يظل مبتلىً بهذا الابن العاق حتى تقوم الساعة!.

* * *

٢- سيدنا نوح عليه السلام

الأنبياء والرسل

لابد وأن يكون مفهومًا للأذهان ، أن الأنبياء والرسل جميعًا ، قد لاقوا في سبيل الدعوة إلى الله تعالى ، وهداية البشر.. كل أنواع العذاب من الهوان والشدة والضيق ، وكانوا جميعًا يقابلون كل ذلك بالإحسان لمن أساء إليهم من قومهم ، إلى جانب تمسكهم بالصبر والخلق العظيم.. ذلك لأنهم يوقنون أنهم من عباد اللَّه المصطفين الأخيار.. ومن الذين وعدهم بالنصر.. وقد اجتباهم رب العزة لتبليغ رسالاته إلى بنى البشر ، وهم يعرفون مسبقًا بأنها مهمة ليست سهلة أو ميسورة..

وقد يظن البعض منا أن ما يلاقيه هؤلاء الأنبياء والرسل في تبليغ رسالة اللَّه إلى عباده الذين اتبعوا خطوات الشيطان ، إنما هو نوع من الابتلاء.. وهو ظن في الحقيقة بعيد عن الحقيقة.. ذلك لأن كل وظيفة لها مقتضياتها ومشاكلها وصعابها.. فما بالنا بتلك الوظيفة المكلف بها من رب العالمين بعض عباده من الأنبياء والرسل..

ولقد قصدنا بهذا التوضيح بيان أن ما يلاقيه النبى أو الرسول في طريق دعوته من صعاب أو مشاكل إنما ذلك يكون من مقتضيات الدعوة - وأن ما يلاقيه من ابتلاء سواء في نفسه أو في ماله أو في صحته أو في ولده ، إنما يأتى زيادة على مهمته في تبليغ الدعوة ورسالة السماء...

وكلهم له صبر وله أجر أيضًا. ولماذا لا يجمع هذا النبى أو هذا الرسول بين جزاء الصابرين في كل من هذين الأمرين ؟! وقد بين لنا القرآن الكريم نجاح صفوة

الرسل والأنبياء فعلاً في هذين الأمرين.. وكان في طليعة هؤلاء الرسل النبى الكريم نوح عليه السلام.. وزملاؤه من ضيوف هذه الأوراق.. بخلاف ما رويناه عن آدم عليه السلام.. لأنه لم يكن صاحب رسالة !.

ولسيدنا نوح عليه السلام ركن عظيم داخل كل كتب التفسير، وكل الكتب التى تحدثت عن قصص الأنبياء. ومن بدايات ما جاء بهذه الكتب أن هذا العبد الصالح كان أول نبى مرسل لبنى البشر من بعد آدم عليه السلام، وأنه صاحب السفينة والطوفان.. بل وصاحب البشرية الجديدة التى آمنت بالله العظيم.. من بعد أن أغرق الله تعالى القوم الكافرين من قومه !.

كذلك حفل القرآن الكريم بالعديد من الآيات الكريمة التى تحدثت بالتفصيل عن رسالة نوح عليه السلام.. وما كان من قومه في شأنه وشأن رسالته.

ومن هذه الآيات قوله تعالى في سورة الأعراف: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ۞ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ۞ قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ۞ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾**، كما أكد المفسرون أن قصة نبى الله نوح وطوفانه ذكرها القرآن الكريم في أكثر من سورة.. وأن رب العزة قد خصص سورة كاملة باسم نوح عليه السلام.. ذلك لأن نوحًا عليه السلام قد أخذ يدعو قومه لعبادة الله ألف سنة إلا خمسين عامًا، فاستحق أن تكون له سورة باسمه، وهى من السور المكية وآياتها ثمان وعشرون وترتيبها بين سور القرآن الواحدة والسبعون. وهذا قول الشيخ محمد متولى الشعراوى.

كما ذكروا الكثير من المعلومات المرتبطة بحياة هذا النبى ونسبه، وأسباب بعثه في قومه. كما ذكروا تفاصيل أخرى عن السفينة من حيث الطول والعرض والارتفاع ومكان هبوطها..

ومما قالوه عن نسب نوح عليه السلام ما ذكره ابن كثير حين قال : هو نوح بن لامك ابن متوشلخ بن خنوخ وهو إدريس عليه السلام بن يرد بن معلائيل بن قنين بن أنوش بن شيث عليه السلام بن آدم عليه السلام.

وكان بين نوح وجده الأكبر عشرة قرون لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الله.. فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ».

ويصور لنا الدكتور رشدى البدراوى في كتابه المهم « قصص الأنبياء والتاريخ » .. حال الدنيا وفسادها حين مبعث نوح عليه السلام .. فيقول : لما تكاثر أبناء قابيل من بعد هجرته من الأرض التى ولد بها بعد ارتكابه معصية الله بقتل أخيه.

وفى المراحل الأولى من هجرتهم شرقى عدن لعلهم اشتاقوا لرؤية جدهم الأكبر آدم ، ولم يكونوا ليستطيعوا العودة لرؤيته في حياته ، أو لزيارة قبره من بعد موته ، ولعل الشيطان أغواهم ووسوس لبعضهم أن يصنع تمثالاً على هيئة رجل يرمز لأبيهم آدم ، وكانوا يطوفون حوله ويذكرون الله.

وعلى مر الأيام نسى الأحفاد وأبناء الأحفاد ذكر الله ، وعبدوا الصنم ذاته ، وكانت هذه هى بداية الشرك بالله.

ولما ملأت الذرية شمال العراق ، يقال إنه ظهر فيهم خمسة رجال صالحين هم : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر. وأحبهم الناس لعدلهم وصلاحهم ، وتصادف أن ماتوا جميعًا في شهر واحد.. فجزع القوم عليهم ، فقال رجل من نسل قابيل : هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم حتى تذكروهم ؟!. فنحت لهم خمسة أصنام ونصبها لهم.

ومرت السنون وقدسوها وعبدوها ، وبنوا المعابد لهذه الأصنام وقدموا القرابين وتسلط الكهنة والملوك على الرعية وساد الظلم وفشت الفاحشة.

وفى هذا التوقيت ولد «للامك» الذي كان يبلغ من العمر ١٧٢ سنة طفل أسماه نوحًا.

وأضاف الدكتور البدراوى : وتقول التوراة في الإصحاح الخامس : وعاش لامك مائة واثنين وثمانين سنة ، ودعا ابنه نوحًا قائلاً : هذا يعزينا عن عملنا وتعب أيدينا من قبل الأرض التى لعنها الرب.

ولقد بعث اللَّه نوحًا نبيا مرسلاً لقومه وهو يبلغ من العمر خمسين عامًا.. فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى اللَّه تعالى ويخوفهم بأسه ويحذرهم سطوته ، ولما كفروا به وبدعوته.. أمره اللَّه ببناء سفينة كبيرة يحمل فيها أتباعه من المؤمنين بدعوته.

ولما انتهى من بنائها وقع الطوفان الذي اغتال المشركين والكفرة من قوم نوح.. وكان من بين هؤلاء كل من امرأته الخائنة ، وابنه الذي لم يؤمن بدعوته ، فكان مصيرهما معًا الغرق.

وقد اختبر رب العالمين هذا النبى الصالح في كل من امرأته وابنه ، ولما صبر أفاض اللَّه عليه بالكثير من النعم في الزوجة وفى الأولاد والذرية. وتلك عاقبة الصابرين على ابتلاء اللَّه رب العالمين.

الابتلاء في الزوجة

عندما حدثنا القرآن الكريم عن هذه المصيبة التى ابتلى بها نوح عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ** ﴾[التحريم : ١٠].

توقفت كثيرًا عن الكتابة وبدأت رحلة أخرى عبر الأفكار. لكى أتصور كيف

حال هذا النبى العظيم الذى اختصه رب العالمين بإحدى معجزاته الكبيرة حين أجرى على يديه السفينة التى أنشأها في مكان ليس فيه ماء ولا بحر! ، وقلت في نفسى.. إن ذلك لموعظة عظيمة من رب العالمين.. لابد وأن يستفيد منها الرجال والنساء من بنى البشر.. ذلك لأن تقبل قضاء اللَّه وقدره بصبر ورضا فيه نجاة من كل البلايا..

ولم لا ؟ فإن هذا النبى العظيم.. أول رسول للبشرية من بنى آدم لم يجزع حين علم بخيانة امرأته له ولدعوته ، مع أنه كان من الأجدر لها أن تؤمن به وبرسالته ، حيث عاشت بجواره وعرفت مدى صدقه. ولكنه الشيطان لعنة اللَّه عليه..

ولنا في السيدة خديجة أم المؤمنين رضى اللَّه عنها وزوج النبى ﷺ أسوة حسنة.. حيث وقفت موقف الشجعان بجانب زوجها حين جاءها بخبر الوحى.

وعلى أية حال.. فإن لقصة نوح مع امرأته معنى كبيرًا ، بل معانى كثيرة ، ذكرها القرآن الكريم. منها أن الكافر لابد وأن يعاقب على كفره وعداوته للَّه ولرسوله ولأوليائه ولا ينفعه في كفره ما كان بينه وبين الرسل من نسب أو صهر أو سبب من أسباب الاتصال ، حيث إن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلاً باللَّه وحده وعلى أيدى رسله.

ولقد اهتم العديد من المفسرين بالحديث عن معنى هذه الآية وما جاء فيها بشأن طبيعة الخيانة التى ارتكبتها امرأة نوح عليه السلام.. حيث أكد هؤلاء المفسرون ومنهم الشيخ محمد متولى الشعراوى أنه ليس المقصود بالخيانة هنا الخيانة الجنسية ، ولكن ذلك لنستدل به على أن الرسول وإن كان رسولاً ليس له من القدرة على أن يقهر المرأة في العقيدة ، حتى وإن ادعى الألوهية كفرعون.

وقال ابن كثير أيضًا : إن معنى خانتاهما.. أى في الإيمان.. فإنهما لم

يوافقاهما على الإيمان ولا صدقاهما في الرسالة فلم يجد ذلك كله شيئًا ولا دفع عنهما محذورًا ، وقال ابن عباس : إن امرأة نوح كانت تخبر أهلها بأن زوجها مجنون ! !.

وبشكل عام نريد أن نسوق بعض ما أفاض اللّه علينا به بشأن الخيانة وأنواعها.. مع التأكيد على ضرورة تصديق ما قاله المفسرون بشأن امرأة نوح.. وأنها لم تخنه في جسدها !.

فهناك خيانة الأمانة.. عندما لا يحافظ من تأمنة على أمانتك.. سواء مالية أو عينية أو أخلاقية ، وهناك كذلك خيانة الوطن بإفشاء الأسرار ونقلها إلى الأعداء.. أما النوع الثالث هو خيانة الزوج.!.

ولو نظرنا إلى هذه الأنواع الثلاثة لمعرفة موقع امرأة نوح عليه السلام منها.. سوف نجدها.. قد خانت الأمانة وخانت الزوج ، بل وخانت الرسالة التى كان يدعو نوح قومه من أجلها.

ونظرًا لأن نوحًا عليه السلام من المرسلين ومن العباد المصطفين الأخيار.. فقد تقبل ابتلاءه بهذه المصيبة بصبر وشجاعة ، وبدون اعتراض على قضاء اللّه وقدره.. ولما تركها تغرق بعد بدء الطوفان.. عوضه اللّه فى غيرها.. وهى الزوج الصالحة التى أنجب منها ولده البكر سام ، وكذلك حام ويافث ، هؤلاء الثلاثة كانوا هم أصل سلالة البشرية من بعد نوح عليه السلام. فسام أبو العرب وفارس والروم وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج..[1].

ولقد أكد هذا المعنى بعض المفسرين ومنهم سعيد بن أبى عروبة الذي نقل عن قتادة قوله : الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام ، وأنَّ كل من كانوا في السفينة ماتوا ولم يعقبوا عقبًا باقيًا غير أبنائه الثلاثة سام وحام ويافث وأزواجهم ، فإنهم بقوا متناسلين حتى ملأوا الأرض.

---

(١) عرائس المجالس.. للثعلبى. مصدر سابق.

وهذا الرأى وافق عليه الكثير من المفسرين.. الذين يرون أن الناس كلهم في مشارق الأرض ومغاربها من ذرية نوح عليه السلام. ولذا فقد قيل : إنه آدم الثانى.

الابتلاء في الولد

قال اللَّه تعالى في كتابه العزيز في سورة هود : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾[هود : ٤٢].

ونظرًا لأن ابتلاء الإنسان في أحد أولاده سواء بالمرض أو بالموت. يعتبر أحد ألوان الابتلاءات الشديدة في حياة الإنسان.. وقد ذكر اللَّه تعالى ابتلاء نوح عليه السلام في ابنه وقصة هذا الابتلاء بتفصيل أكثر من الحديث عن ابتلائه - عليه السلام - في إمرأته ، وكذلك بين لنا القرآن الكريم مدى تمسك الأب بابنه ، رغم ما بدر منه في حق اللَّه تعالى حين عصاه وكان من الكافرين ، وهذا يدل دلالة كبيرة على تفوق عاطفة الأبوة داخل الإنسان وفق خلق اللَّه تعالى ، أكثر من أى عاطفة أخرى.

وكذلك بين لنا القرآن الكريم مدى إحساس نوح عليه السلام بالخسارة الفادحة حين رأى ابنه على كفره وعناده وقد أوشك على الغرق مناديًا إياه بضرورة اللحاق به وبالقوم المؤمنين.

ولولا وسوسة الشيطان الملعون.. لآمن ولد نوح عليه السلام ولركب السفينة وكان من الآمنين ، ولكنه فضل الكفر على الإيمان فلحق بأمه التى خانت زوجها من قبل، وكان مصيرها الغرق مع قومها من الكافرين.

ولقد ظل نوح عليه السلام متعلقًا بابنه حتى من بعد أن لجأ إلى الجبل العالى الذي ظن أنه سوف ينجيه من الغرق ، وظل كذلك يناديه ويناجى رب العالمين أن يساعده على نجاة ولده !. إلا أن كلمة ربك قد سبقت هذا الدعاء.. فكان من المغرقين ، وبالتالى لم تغن عنه درجة قرابته لأبيه ذلك الرسول العظيم نوح عليه السلام.

ويالها من خسارة فادحة شعر بها هذا النبى الكريم حين علم بمصير ابنه وأنه غارق لا محالة ، وقد أصابته لوعة الفراق حتى أخذ يناجى ربه بأن يعفو عنه وينجيه من هذا الهم وهذا الابتلاء.

ولولا صبر من اللَّه وعزم أكيد من جانب النبى نوح عليه السلام لفعل به هذا البلاء.. تأثيره القوى ، وليسأل كل فرد منا نفسه كيف سيكون حاله عندما يرى ابنه يغرق أمامه ولا يستطيع أن ينقذه..

بل وأكثر من ذلك كيف كان عليه حال هذا النبى وهو يعلم أنه قريب من اللَّه وأن اللَّه سبحانه وتعالى لن يخيب له رجاءً. ومع ذلك لم يستجب اللَّه له ؟ !. إنها حكمة بليغة لابد وأن نتعلم منها.. ونأخذ منها الصبر والعظات ، وهى قصة ابتلاء عظيم في حياة أحد أنبياء اللَّه المرسلين من الذين صبروا وتقبلوا قضاء اللَّه وقدره.. فعوضه اللَّه عن ذلك بالولد والأهل والذرية الصالحة.

وللمفسرين والرواة وكُتاب التاريخ والسير كلام كثير عن قصة غرق ابن نوح عليه السلام ، وكلها تدور في فلك عصيان هذا الابن لوالده.

ولعلى أدلى برأيى في هذا السياق.. فإن سيدنا نوحًا عليه السلام قد فوجئ بموقف ولده من دعوته.. كما فوجئ من قبل بموقف امرأته ، وإن كان رد فعله تجاه امرأته بالطبع قد اتسم بالفتور ، بعكس ردود أفعاله تجاه غرق ابنه.. والحديث التالى سوف يبين لنا ذلك وأكثر.. وفق ما كتبه المفسرون.

ومن هؤلاء المفسرين الكبار الذين تناولوا قصة غرق ابن نوح عليه السلام وردود أفعاله كأب فوجئ بموقف ابنه.. هو شيخ الإسلام الدكتور محمد سيد طنطاوى ، الذي قال : إن القرآن الكريم قد حكى ما قاله نوح عليه السلام للمؤمنين عند ركوبهم السفينة فقال تعالى : ﴿ **وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ** ﴾

أى : ونادى نوح ابنه الكافر وكان في مكان منعزل عن جماعة المؤمنين فقال له بعاطفة الأبوة الحانية : ﴿ يَابُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾.

قال نوح عليه السلام : ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾.

أى قال نوح لابنه : لا معصوم اليوم من عذاب اللَّه إلا من رحمه اللَّه تعالى بلطفه وإحسانه ، وفصل الموج بين نوح وبين ابنه ، فكانت النتيجة أن صار الابن الكافر من بين الكافرين.

ويضيف الدكتور طنطاوى في تعليقة على هذا الموقف : إن هذه الآية الكريمة تصور لنا ما دار بين نوح وابنه من محاورات في تلك اللحظات الحاسمة المؤثرة التى يبذل فيها كل أب ما يستطيع بذله من جهد لنجاة ابنه من هذا المصير المؤلم.

ولما استقرت السفينة على الوادى ونَجَا من كانوا فيها من المؤمنين من أتباع نوح عليه السلام.. لم ينس نوح ابنه ، بل ظل هذا الحادث عالقًا في ذهنه وقلبه طويلاً.. مأخوذًا به حزينًا.. بدليل أنه تضرع إلى اللَّه بشأن ولده فقال : ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾.

والمعنى أنك يا ربى قد وعدتنى ووعدك الحق بنجاة أهلى إلا من سبق عليه القول منهم ، لكنى في هذا الموقف العصيب أطمع في عفوك عن ابنى وفى رحمتك له.. فإنه يا إلهى لا راد لحكمك ولا معقب لأمرك.

ونظرًا لأن ابن نوح عليه السلام كان غارقًا في الكفر من دون أن يدرى والده.. إذ وقف موقف المعاند من دعوة اللَّه بالتوحيد والإيمان ، فقد سبق عليه حكم اللَّه بالعذاب مع بقية الكافرين.

ولقد تجلت إجابة رب العالمين على محاورة نبيه نوح في قوله تعالى : ﴿يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ويبدو من ظاهر هذه الآية أن ابن نوح عليه السلام كان بالفعل عملاً غير صالح إذ أنجبه من المرأة التى خانته ووقفت تصفة بالجنون أمام قومه !.

ولقد تقبل نوح عليه السلام حكم ربه صابرًا وغير معقب وإن كان قلبه لا يزال معلقًا برحمة اللَّه أن ينجى ابنه رغم كفره وعناده.

وآه لو علم الأبناء ما في قلوب وصدور آبائهم من حب وإخلاص لما فرطوا في نصيحة أب ولا في كلمة يقولها مهما كانت مرة أو عنيفة.

ويؤكد حجة الإسلام الدكتور عبد الحليم محمود على موقف نوح عليه السلام.. وما كان في قلبه لابنه.. وما أصابه من حزن وغم شديدين.. فقال : ما من شك في أن كلمة « يا بنى » فيها الشفقة وفيها العطف ، ولكن الشفقة والعطف لم يبلغا بنوح عليه السلام إلى أن يتسامح مع ابنه في الركوب ولو لم يؤمن ، « كلا » إنه يقول له في لغة مفهومة ، الحق بالمؤمنين في إيمانهم لتنجو في سفينتهم ولا تمكث مع الكافرين في كفرهم ، ولو أراد نوح أن يأخذ ابنه رغمًا عنه في السفينة لفعل ، إنه لو أراد أن يطرحه أرضًا ويوثق كتفيه فيلقيه في السفينة لأمكن ذلك.. ولكن الأمر لم يكن أمر نجاة جثمانية وإنما كان أمر إيمان..

ويقترب بنا الشيخ الإمام الراحل محمد متولى الشعراوى من تصوير حجم المصيبة والبلية التى أحاطت بالنبى نوح عليه السلام ، فيما يتعلق بموقف ابنه من ركوب السفينة.. وذلك عندما قال : لقد غلبت عاطفة الأبوة على نوح عليه السلام وذلك عندما بدأت السفينة رحلتها ، حيث رأى أن ابنه لم يركب فيها ، وعرف كذلك أنه سيغرق ، فأسرع يناديه ويحاول أن ينجيه ، هذه العاطفة الأبوية هى التى جعلت نوحًا عليه السلام يحاول إنقاذ ابنه رغم أنه كافر ، ولكن الكفر الذي ملأ قلب ابن نوح

أعماه عن الحقيقة ، فبدلا من أن يرد أمر النجاة إلى اللّه رده إلى نفسه وإلى قدرته البشرية !.

ويضيف الشيخ الشعراوى أن عاطفة الأبوة التى كانت لنوح عليه السلام.. إنما هى عاطفة تناسب حاجة الابن تناسبًا عكسيا ، فالابن وهو صغير ضعيف .. عاطفة الأبوة تكون قوية جدا.. فإذا قوى وكبر - تقل ، وإذا كان هناك أخوان أحدهما غنى والآخر فقير تكون عاطفة الأبوين مع الفقير لأنه ضعيف أو مع المريض لأنه يعانى.. أو مع الغائب الذي يعمل في بلد بعيد. إذن فمادام الابن في حاجة إلى أبويه كانت طاقة العاطفة نحوه أقوى..

ونحن نضيف إلى قول حجة الإسلام الشيخ الشعراوى قولاً آخر فيما يخص هذه العاطفة.. التى تدفقت من قلب وعقل نوح عليه السلام تجاه ابنه.. أن السبب الرئيسى وراء ذلك هو أن نوحًا عليه السلام قد عرف أن أمه الكافرة قد خانته وغدرت به وكان مصيرها الغرق ، هذا الموقف قد ولد داخل عقل ونفس نوح عليه السلام عاطفة زائدة تجاه ولده الذي شعر بأنه بات بدون أم.. وبالتالى لابد من الوقوف بجانبه حتى يبصره بالحق ! ، بدليل أنه - أى نوح عليه السلام - بعد غرق ولده ظل يناشد ربه أن يرحمه !.

ويستطيع كل إنسان عاقل منا أن يصل إلى ما وصل إليه نوح عليه السلام في هذا الموقف العصيب.. خاصة إذا كان قد فقد زوجه وبات ابنه يتيمًا وحيدًا !.

ولقد اختلف الرواة والمفسرون في اسم ابن نوح عليه السلام.. فقالوا : إن اسمه يام ، وبعضهم قال كنعان.. كما اختلفوا كذلك في عدد أبناء نوح وصفة أهله من الذين وصفهم القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **وَأَهْلَكَ إِلا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ** ﴾. حيث قال قتادة : لم يكن في السفينة إلا نوح وامرأته وثلاثة من بنيه : سام وحام ويافث ونساؤهم. فجميعهم ثمانية.. وعلى حد قول الدكتور رشدى البدراوى فإن هذا القول لا يعارض الرأى القائل بأن امرأة نوح كانت كافرة وكانت من

المغرقين، فلابد أنه كانت له زوجان إحداهما كافرة وقد غرقت.. والأخرى مؤمنة وهى التى ركبت معه السفينة. وقال الأعمش : كانوا سبعة : نوح وثلاثة بنين وثلاث كنائن له.

ومهما كان من أمر قصة نوح عليه السلام مع الابتلاء في الزوجة وفى الولد.. فقد صبر هذا النبى المرسل.. وتقبل قضاء اللّه وقدره.. ولم يعارض حكم اللّه أو يعترض عليه.. وكان جزاؤه أن أنعم اللّه عليه بذرية واسعة مؤمنة ملأت الدنيا شرقًا وغربًا. وأصبحنا جميعًا - وإلى يوم القيامة - من ذرية نوح عليه السلام..

* * *

٣- سيدنا إبراهيم عليه السلام
خليل الرحمن

وصف رب العزة سيدنا إبراهيم عليه السلام بالعديد من الصفات العظيمة التى جعلته بالفعل أمة وحده !. وجاء في مقدمة هذه الصفات قول رب العالمين في سورة النساء ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلا ﴾.. فيا لها من صفة عظيمة تليق بالخالق الكريم وتليق بخُلق عبده الحليم إبراهيم عليه السلام.

ولقد حفل القرآن الكريم بالعشرات من الصفات الحميدة الأخرى التى وصف بها رب العزة خليله إبراهيم عليه السلام.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم : ٣٧].

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [البقرة : ١٣٠].

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود : ٧٥].

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٤١].

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١].

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ٨٣ ، ٨٤]

ليس هذا فقط. بل كرم رب العزة إبراهيم عليه السلام.. بأن ذكره في آيات كثيرة أخرى حفل بها القرآن الكريم في سور عديدة وهى سور : البقرة - آل عمران -

الأنعام - التوبة - الحجر - مريم - الأنبياء - الحج - الشعراء - النمل - العنكبوت - الصافات - الزخرف - والذاريات وغيرها.

بل وأكثر من ذلك فقد أنزل اللّه تعالى على قلب نبيه محمد - عليه الصلاة والسلام - سورة كاملة تحمل اسم هذا النبى الكريم وهى « سورة إبراهيم ».

وكذلك فقد اهتم المفسرون كثيرًا بهذه الشخصية العظيمة في العديد من المؤلفات.. بل واهتم بها أيضًا المؤرخون والرواة من كُتاب قصص الأنبياء وسير الرسل والأنبياء.

ولسوف تظل هذه الشخصية الكريمة محط أنظار وأقلام المفكرين إلى قيام الساعة ، نظرًا لأنها شخصية بُنيت عليها أهم رسائل السماء وهى اليهودية والمسيحية والإسلام ، حيث إن كل رُسل هذه الديانات من صلب إبراهيم عليه السلام ، بل ومن أحفاده المباشرين حيث أخذ اللّه من ذريته النبوة والكتاب.

ورغم أن القرآن الكريم لم يتدخل كثيرًا في ذكر التفاصيل المرتبطة بحياة إبراهيم عليه السلام ونسبه ، إلا بالقدر الذي يخدم السبب في الحديث عن هذه التفاصيل، وما يخدم رسالته ودوره الإيمانى الذى جعله عرضة للإيذاء من قومه ، فقد اجتهد المفسرون كثيرًا في الحديث عن هذه التفاصيل.. وأشاروا من خلالها إلى حياته وأطوارها ونسبه وتاريخ أسرته.. وأشياء كثيرة أخرى.

كما تحدثوا بإسهاب كبير وتوسع شامل عما لقيه هذا النبى الكريم من ابتلاءات عديدة ، استطعنا حصرها ، في ثلاثة ، هى : أن اللّه قد ابتلاه في والده الذي كفر برسالته ! ، ووقف منه ومن رسالة السماء موقف المعاند المؤيد للكافرين.. كذلك ابتلاه رب العالمين في نفسه عندما ألقوه فى النار ، وأخيرًا ابتلى إبراهيم عليه السلام في ولده إسماعيل ، عندما أمره اللّه بأن يذبحه.

ومن فضل اللّه ومن رحمته ، أن خرج إبراهيم عليه السلام من هذه الابتلاءات غانمًا

شاكرًا فضل ربه ، ولنا في هذا النبى الكريم أسوة حسنة ، سواء فيما روى عن قصة حياته مع قومه أو مع البلايا المتعددة التى اختبر بها وهى التى سوف نشير إليها فى هذه الأوراق.

ولقد رأينا من قبل الوقوف تفصيلا على أحداث هذه الابتلاءات ، ضرورة الاقتراب ولو لمسافات قريبة من حياة ونشأته ونسبه لأجل اكتمال الفائدة.

ويحضرنى في هذا المقام قول الأستاذ أحمد بهجت في كتابه عن أنبياء اللَّه: « نحن أمام بشر جاء ربه بقلب سليم.. إنسان لم يكد اللَّه يقول له ﴿ أسلم ﴾ حتى قال: ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾ ، نبى هو أول من سمانا المسلمين.. نبى أثمرت دعوته المستجابة عن بعث محمد بن عبد اللَّه ﷺ ».

وأما عن مولده ونشأته ونسبه عليه السلام.. فقد قال عنه العلامة المسلم أبوإسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابورى المعروف بالثعلبى : إن العلماء اختلفوا في الموضع الذي ولد فيه فقال بعضهم : كان مولده ببابل من أرض السواد بناحية يقال لها كوثا ، وقال بعضهم : كان مولده بالوركاء ناحية حدود كسلر ثم نقله أبوه إلى الموضع الذي كان فيه نمروذ من ناحية كوثا ، وقال بعضهم كان مولده بحران ، ولكن أبوه نقله إلى أرض بابل ، وقال عامة السلف من أهل العلم : ولد إبراهيم عليه السلام في زمن نمروذ بن كنعان ، وكان بين الطوفان وبين مولد إبراهيم عليه السلام ألف ومائتان وثلاث وستون سنة ، وذلك بعد خلق آدم عليه السلام بثلاثة آلاف وسبع وثلاثين سنة.. ونمروذ الذي ولد في ملكه إبراهيم هو نمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن كورش بن حام بن نوح[1].

ورغم هذا الخلاف إلا أن شيخ الإسلام الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر يميل كثيرًا لما ذكره ابن كثير في تفسيره عن أصل ونسب ومولد إبراهيم

---

(١) المصدر السابق.

عليه السلام.. ولذلك فقد نقل عنه قوله في كتابه «البداية والنهاية» هو إبراهيم بن تارح، ابن ناحور، بن ساروغ، بن راعو، بن نافع، بن عابر.. بن سام، بن نوح عليه السلام وكانت المدة بين إبراهيم ونوح - عليهما السلام - تزيد على ثلاثة آلاف سنة. وولد إبراهيم بأرض بابل بالعراق.. ولما كان عمر والده تارح خمسًا وسبعين سنة، ولد له إبراهيم عليه السلام وناحور وهاران، وولد لهاران «لوط» عليه السلام.. وعندهم أن إبراهيم هو الأوسط، وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التى ولد بها، وهى أرض الكلدانيين، يعنون أرض بابل، وهذا هو الصحيح المشهور عن أهل السير والتواريخ والأخبار خلافًا لمن قال إن إبراهيم ولد بغوطة دمشق[1].

ثم هاجر إبراهيم مع أبيه من أرض الكلدانيين إلى أرض كنعان، وهى بلاد بيت المقدس والجزيرة والشام، فنزلوا حران، وهناك تزوج بسارة ابنة ملك حران، وكان أهلها يعبدون الكواكب.

ويؤكد الدكتور سيد طنطاوى أنه يبدو أن إبراهيم عليه السلام قد عاد مرة أخرى إلى أرض بابل التى كان أهلها يعبدون الأصنام، وهناك جرى ما جرى بينه وبين ملكها وأهلها من محاورات ومجادلات خلال دعوته لهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار.

ثم رجع مرة أخرى إلى بلاد الشام ومعه ابن أخيه لوط عليه السلام، ثم رحل بعد ذلك إلى مصر، بعدما اشتد القحط والغلاء في بلاد الشام، وبعد أن أقام هو وزوجه في مصر ما شاء الله له أن يقيم بها عاد إلى فلسطين.

وعلى أية حال، فإن التحديد الدقيق للأماكن التى ولد بها بعض الأنبياء والرسل غير متوافر.. خاصة في العالم القديم الذي لم تكن له ملامح واضحة من حيث الحدود الجغرافية المتعارف عليها الآن، وكذلك أسماء هذه المناطق التى

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

نشأت فى ظل تجمعات بشرية غير مستقرة إلا فيما كان فقط حول الأنهار والوديان ، ولذلك فإننا نقول فى ظل عدم وجود هذا التحديد الدقيق إن الخلاف بين العلماء فى مكان ولادة إبراهيم عليه السلام وأماكن نشأته ، أمر وارد جدًا .. وإن كنا نميل كثيرًا إلى الرأى الذى يقول إن رسالته - عليه السلام - قد تأرجحت فى أماكن منطقة الفرات وما حولها من أماكن اقتربت كثيرًا من أرض الشام وفلسطين.

ومما يؤكد لدينا هذا التأييد فى الرأى السابق هو اقتراب هذه الأماكن حدوديًا الآن من منطقة الحجاز خاصة مكة والمدينة - حيث استقر ابنه إسماعيل عليه السلام ، ومن ذريته الخالصة خرج نبى الإسلام العظيم محمد - عليه الصلاة والسلام-.

وإذا كان العلماء والمؤرخون والمفسرون قد اختلفوا حول مكان ميلاد إبراهيم عليه السلام .. فقد اختلفوا كذلك فى تسمية أبيه وهل كان اسمه تارح كما جاء في كتب التوراة والإنجيل ونقله كثيرون من مؤرخى الإسلام ؟!. أم أن اسمه آزر كما جاء بالقرآن الكريم.

وللدكتور رشدى البدراوى رأى وجيه في هذا الخلاف نود الإشارة إليه من قبل أن نعيش أهم حالات الابتلاء في حياة إبراهيم عليه السلام ، ذلك لأننا نعتبر أن ما جاء بقصة حياة هذا النبى الخليل.. إنما تعد جزءًا أصيلاً من حكايته مع الابتلاء الذي بدأ بأبيه وانتهى بابنه مرورًا به شخصيا !.

ومما قاله الدكتور البدراوى في هذه الخصوصية : إن آزر هو والده حقا وكان له اسمان ، يدعى تارح أحيانًا ، وأحيانًا يدعى آزر.. وفى تفسيره لذلك قال : إن الرواة الذين يؤيدون هذا الرأى إنما قاسوه على أن نبينا - عليه الصلاة والسلام - اسمه محمد ، واسمه أيضًا المصطفى والقاسم ، وبذلك يحتمل أن اسم والد إبراهيم

عليه السلام هو تارح ويسمى أيضًا آزر، أى القوى « أو المعين من المؤازرة » وقال فريق من المفسرين : إن « آزر» هو اسم صنم كان يعبده تارح والد إبراهيم عليه السلام وكان سادنا له ، وكذلك أشار الدكتور البدراوى في هذا الشأن إلى ما ذكره الأستاذ رؤوف أبو سعدة عن أصل اسم والد إبراهيم عليه السلام.. فقال : إن آزر هى الترجمة العربية الصحيحة لاسم تارح العبرى.

الابتلاء في الأب

أشار القرآن الكريم في عدد من السور والآيات الكريمة إلى موقف والد إبراهيم عليه السلام من دعوته إلى اللّه.. ومطالبة أبيه وقومه بضرورة نبذ عبادة الأصنام.. كما أشار أيضًا إلى ذلك العناد الكبير الذي صدر من والد إبراهيم عليه السلام تجاه دعوته إلى اللّه ، ففى سورة الأنعام قال رب العالمين : **﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾** [الأنعام : ٧٤].

وفى سورة مريم : **﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا۞ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا۞ يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا۞ يَاأَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا۞ يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِن الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾** [مريم: ٤١ - ٤٥].

وفى سورة الأنبياء : **﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ۞ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾** [الأنبياء : ٥١ ، ٥٢].

وفى سورة الشعراء : **﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ۞ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ۞** [الشعراء : ٦٩ - ٧٠].

وفى سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۞ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۞ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾

[الصافات : ٨٣ - ٨٦]

والمتأمل بقلب فيه إيمان المصطفين الأخيار، وعقل عابد يمعن النظر فيما أنزل اللَّه من أحاديث.. يكتشف بسهولة أن الآيات السابقة ، قد صورت لنا بكل دقة مأساة إبراهيم عليه السلام مع والده.. عندما اكتشف بعدما هداه اللَّه لنور الإيمان.. أن ذلك الأب هو من طائفة الكافرين الذين يعبدون الأصنام ، وكم أصابت هذه المفاجأة قلب وعقل إبراهيم عليه السلام ، الذي شعر أنه قد دخل في أولى معاركه مع الابتلاء ، رغم اختياره من جانب الرحمن لكى يتبوأ منزلة الخليل ، ويا لها من منزلة لم يفز بها من قبل أحد غيره من الأنبياء والرسل أو من بعده إلى يوم القيامة.

ولقد تقبل إبراهيم عليه السلام هذا الابتلاء بصبر وجهد.. ولم يجزع رغم أنه يرى أباه الذي رباه سوف يدخل النار مع الكافرين.

ولأنه من المرسلين الأخيار.. فقد عرف فداحة هذا المصير الذي يتهدد أباه.. ولأنه من الأولاد الذين تربوا على مائدة الرحمن.. فقد حزن كثيرًا لهذا الموقف المعاند من والده ! ، وهو لذلك لم يعجز وسيلة من الوسائل لكى يقنع بها هذا الأب الكافر على أمل أن يتخلى عن عناده ويؤمن باللَّه العظيم ويترك عبادة الأصنام !.

ومن حكمة القرآن الكريم أن نقل إلينا نص المحاورات الهادفة التى كانت بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه آزر، هذا الابن البار لم يتخل عن مشكلة أبيه أو ابتلاء اللَّه به ، بل بذل كل ما في وسعه من أجل أن يعظه ويبصره بالطريق القويم.

وفى تصورنا أنه لولا تسلط الشيطان على نفس وعقل آزر أبى إبراهيم

عليه السلام ، لأسلم وجهه لله امتثالاً لأوامر رب العالمين التى حملها إليه ابنه إبراهيم عليه السلام.

ويرى بعض المؤرخين وأنا من المؤيدين لما توصلوا إليه أن ابتلاء إبراهيم عليه السلام في والده.. كان مساويًا تقريبًا لابتلاء نوح عليه السلام في ابنه وفى امرأته.

بل وأكثر من ذلك قالوا : إن ابتلاء إبراهيم عليه السلام بكفر والده وعناده ووقوفه في صفوف الكافرين ، كان البداية القوية لذلك الابتلاء العظيم الذي ابتُلى به إبراهيم عليه السلام في نفسه ثم في ولده إسماعيل.

ولنفسح المجال بعض الشيء لكى نقف بالتفاصيل على ظروف ابتلاء إبراهيم عليه السلام في أبيه آزر.. هذه التفاصيل تحدثت عنها كتب قصص الأنبياء والسير العطرة.. وبعض كتب التاريخ..

ومما قيل في هذا السياق: إن آزر والد إبراهيم عليه السلام كان من صناع التماثيل التى كان يعبدها قومه.. ولقد خاف إذا ما آمن برسالة ابنه أن تبور تجارته !.. وقد ذكر عبد الحميد جودة السحار أن ملك بابل أرسل في طلب والد إبراهيم ليصنع تمثالاً للإله مردوخ كبير الآلهة ، وأن جده ناحور كان من أبرع من تعلم فن التنجيم.. وكبر إبراهيم عليه السلام حيث عاش في كنف والده الذي كان يصنع هذه التماثيل التى كان يعبدها قومه !. وكانت تماثيل من خشب وحجارة على هيئة إنسان إلا أن أذنيه كبيرتان ويحمل السلاح المقدس ويربض تحت قدميه وحش !.

وهكذا عايش إبراهيم عليه السلام كما يقول الدكتور رشدى البدراوى مراحل صنع هذه التماثيل ، ورأى كيف أنه أحيانًا ينشق الخشب وينكسر التمثال فيلقى به والده جانبًا وقد يستعمله كوقود للنار! ، ولعله تعجب من هذه التماثيل التى لا تملك أن تدفع عن نفسها شيئًا.. وكيف يرجوها الناس أن تلبى لهم طلباتهم وكيف يركعون ويسجدون لها ؟ !.

ولما بلغ إبراهيم عليه السلام رشده.. وأسلم وجهه لله.. ومن قبل أن يحمل رسالة رب العالمين لقومه من عبدة الأصنام ، أخذ يدعو أهله لنبذ هذه العبادات ، وكان في مقدمة هؤلاء بطبيعة الحال والده آزر.

ولقد بين لنا القرآن الكريم تفاصيل تلك المحاورات التى دارت بين إبراهيم عليه السلام بعدما عرف بابتلائه في أبيه الذي يعبد الأصنام ، وكانت بداية تلك المحاورات في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٧٤].

والمعنى كما فسره الإمام الأكبر الشيخ محمد سيد طنطاوى : قوله اذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ ، وقت أن قال إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر منكرًا عليه عبادة الأصنام : أتتخذ أصنامًا آلهة تعبدها من دون اللَّه الذي خلقك وخلق كل شيء ؟ !.

وتتوالى فيوضات القرآن الكريم فيما يخص تفاصيل هذه المحاورات بالأسلوب الذي تميز به القرآن الكريم من حيث عمق المعنى وبساطته حيث يواصل إبراهيم عليه السلام توجيه كلماته لأبيه أو عمه كما قال بذلك بعض المفسرين ومنهم الشيخ الشعراوى.. فيقول القرآن الكريم : ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا۞ يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِن الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا۞ يَاأَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا۞ يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِن الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾[مريم: ٤٢-٤٥]

والمعنى أن إبراهيم عليه السلام لما فوجئ بكفر والده.. وعصيانه للَّه تعالى.. وبعدما عرف كرسول وكنبى نتيجة هذا العصيان أخذ يستعطف والده ألا يسير في طريق الشيطان ، ذلك لأنه بات يعرف أكثر منه ومن قومه نتائج هذا العصيان الذي يقف وراءه بقوة الشيطان وأعوانه !. حيث جاءه من العلم النافع الذى علمه

اللَّه إياه ما لم يأت أباه أو قومه ، هذا العلم الذى عرفه إبراهيم عليه السلام ارتبط بمعرفته بأغراض الشيطان الذي أمر قومه وأباه بعبادة الأصنام من دون اللَّه.

ولقد اختتم إبراهيم عليه السلام هذه المحاورة بقوله : يا أبت إنى أخاف وأشفق عليك من أن ينزل بك عذاب من الرحمن بسبب إصرارك على عبادة غيره ، فتصير بذلك قرينًا للشيطان في العذاب بالنار يوم القيامة !.

ويؤكد الدكتور محمد سيد طنطاوى أنه بهذا الأسلوب الحكيم الهادئ الرقيق خاطب إبراهيم عليه السلام أباه وهو يدعوه إلى وحدانية اللَّه.. ورغم ذلك وقف أبوه موقف المعاند من دعوته الصادقة مما أكد الحزن والغم في داخل نفس وعقل إبراهيم عليه السلام ، خاصة بعدما وجه إليه أبوه هذه العبارة منهيا بها هذه المحاورة : إذا لم تتوقف عن دعوتك هذه فسوف أرجمك ، سأقتلك ضربًا بالحجارة وهذا جزاء من يقف ضد الآلهة ، اخرج من بيتى.. لا أريد أن أراك.. اخرج[1]..

ورغم إحساس إبراهيم عليه السلام بالمرارة تجاه موقف والده المعاند فقد صبر على هذا الابتلاء.. آخذًا في دعاء اللَّه أن يهدى والده للإيمان.. ولقد تجلى ذلك فيما قاله إبراهيم عليه السلام لأبيه : يا أبت لك منى السلام الذي لا يخالطه جدال وأذى ، ولك منى الوداع الذي أقابل معه إساءتك إلى بالإحسان ، وفضلاً عن كل ذلك : سأستغفر لك ربى. إنه كان بى حفيا.

ولقد وفى إبراهيم عليه السلام بوعده تجاه أبيه ، إذ استمر في استغفاره لأبيه ، إلى أن تبين له أنه عدو لله تعالى.. فتبرأ منه. هذا التبرؤ كان نهاية لاستسلام إبراهيم عليه السلام لإرادة اللَّه فيما ابتلاه إياه في كفر أبيه.

وقد قرر بعد ذلك اعتزال أبيه وقومه والابتعاد عنهم ، بل والتصدى لآلهتهم وتحطيمها ، والاستعانة باللَّه وبقوته لأجل أن يتم عليه نعمته فيما هو مقدم عليه من كفاح عظيم ضد هؤلاء القوم الكافرين.

---

(١) أنبياء اللَّه. أحمد بهجت ، مصدر سابق.

وقد كان.. إذ واجه إبراهيم عليه السلام هؤلاء القوم ودعواهم الباطلة ولم ترهبه حتى نيرانهم التى هددوا بإلقائه فيها إذا لم يبتعد ويرجع إلى عبادة آلهتهم مرة أخرى.. وكان ذلك هو الابتلاء الثانى في حياة نبى اللَّه إبراهيم عليه السلام.. ولما صبر على البلاء الأول حين اعتزل أباه وقومه.. جزاه اللَّه خيرًا..

وعن ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا** ﴾ [مريم: ٤٩].

الابتلاء في النفس

يعتبر الخليل إبراهيم عليه السلام.. من أوائل الأنبياء والرسل الذين ابتلوا بلاء شديدًا في النفس، وذلك حين اجتمع قومه ومن بينهم أبوه أو عمه وكل أهله وعشيرته من الكافرين في حلقه كبيرة حول أكبر محرقة عرفها الإنسان منذ خُلق وحتى الآن، انتظارًا للقضاء عليه وقتله مكويًّا بنار الحقيقة التى أخذ يدعو لها.

ولقد نقل إلينا حجة الإسلام الدكتور عبد الحليم محمود صورة حية لتلك المحرقة التى أعدت للقضاء على إبراهيم عليه السلام، فقال: عندما حطم الأصنام تبعًا لأمر اللَّه، فأتى به قومه على أعين الناس ليحاكموه وليشهد الناس محاكمته فجادلهم وسخر منهم، فما كان منهم إلا أن قالوا: ﴿ **حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ** ﴾.

لقد استقر الأمر على إلقائه في النار ليموت حرقًا.. كما روى القرآن عنهم أنهم قالوا أيضًا: ﴿ **ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ** ﴾ [الصافات: ٩٧].

ويضيف الدكتور عبد الحليم محمود فيما يخص تفاصيل هذه المحرقة بقوله: ما من شك في أن التفاصيل التى يذكرها من كتبوا عن القصة لا يستند كثير منها إلى أصل موثوق به، ولكن لا بأس من أن نذكر بعضًا من هذه التفاصيل، ولسوف

نشعر نحن أيضًا بهول هذا الابتلاء حين نقف معًا على هذه التفاصيل ، ولولا فضل من اللَّه ورحمة على عبده وخليله إبراهيم عليه السلام لقضى عليه فعلاً في هذا الابتلاء العظيم.

ولقد أثبت هذا النبى أنه بالفعل جدير بهذه المنزلة التى منحها اللَّه إياه بأن اختاره خليله.. إذ لم يطلب النجاة من أحد حتى من الأمين جبريل عليه السلام ، بل طلب رحمة اللَّه الواسعة والتى أدركته فورًا.. حين قال اللَّه تعالى للنار: ﴿ **يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ** ﴾..

وأما عن التفاصيل التى ذكر جزءًا منها حجة الإسلام الدكتور عبد الحليم محمود فتقول : حينما اجتمع الملأ الذين كفروا من قوم إبراهيم وعلى رأسهم النمروذ ، وأصدروا الحكم أخذوا يهيئون وسيلة التنفيذ ، فحبسوه في بيت وبنوا بنيانا بقرية يقال لها « كوش » ثم جمعوا -كما يقول الشيخ الصاوى- أصلاب الحطب وأصناف الخشب مدة شهر ، حتى كان الرجل يمرض فيقول : لو عوفيت لأجمعن حطبًا لإبراهيم ، وكانت المرأة تغزل وتشترى الحطب بغزلها إحتسابًا في دينها ! ! ، وكان الرجل يوصى بشراء الحطب وإلقائه في المكان الذي ستشعل فيه النار».

فلما جمعوا ما أرادوا أشعلوا في كل ناحية من الحطب نارًا فاشتعلت النار واشتدت حتى أنه كان الطير ليمر بها فيحترق من شدة وهجها وحرها فلما أرادوا أن يلقوه فيها أعيتهم الحيل في كيفية إلقائه فصنع لهم رجل من الأكراد يسمى « هيزن » منجنيقًا فعمدوا إلى إبراهيم فأخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول حسبما رواه العالم المدقق الإمام ابن كثير: « لا إله إلا أنت سبحانك ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ».

وأما الإمام البخارى فيروى بسنده عن ابن عباس أنه قال - أى إبراهيم - : « حسبنا اللَّه ونعم الوكيل ».

وأضاف الرواة على ما ذكره الإمام الدكتور عبد الحليم محمود فقالوا : إنه لما قذفوا إبراهيم في النار بالمنجنيق.. استقبله جبريل عليه السلام فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، قال جبريل : فاسال ربك ، فقال إبراهيم عليه السلام : حسبى من سؤالى علمه بحالى.. حسبى اللَّه ونعم الوكيل ، فقال اللَّه عز وجل : ﴿يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾.

وقال السدى : كان جبريل عليه السلام هو الذي ناداه بأمر اللَّه تعالى.. وقال على ابن أبى طالب رضي الله عنه وابن عباس : لو لم يقل سلامًا لمات إبراهيم من بردها ، ولم يبق حينئذ نار في الأرض إلا أطفئت.

وهكذا لم تحرق النار إلا وثاق إبراهيم عليه السلام ، وقيل أكثر من ذلك : إن إبراهيم عليه السلام مكث داخل هذه المحرقة وتحت رعاية اللَّه سبحانه وتعالى سبعة أيام ، لم ينعم إبراهيم منها عيشًا كالأيام التى كان بها في النار! ، كما قيل أيضًا : إن إبراهيم ظل في النار أيامًا حتى خمدت ، ولم يصبه منها شيء غير العرق على وجهه ، ولما انطفأت هذه النار الموحشة فوجئ قومه به يخرج من هذه المحرقة سالمًا ، وذلك مصداقًا لقوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

وفى تعليق عظيم لإمام الإسلام الدكتور عبد الحليم محمود أشار فيه إلى قوة تحمل هذا النبى لهذا الابتلاء الكبير فقال : وهذه الصورة لإبراهيم هى حقا صورة الرجل الذي ألقى بقياده تاما كاملاً إلى اللَّه سبحانه.. إنه الرجل الذي ينفذ ما يؤمر به من غير تردد ولا فتور.. وينتهى عما ينهى عنه في تصميم وعزم ، ولا يسأل غير اللَّه أحدًا بل إن ثقته بعلم اللَّه الكامل المطلق الشامل تمنعه من السؤال ، واللَّه سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسى : « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ».

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام.. وما جزاء إبراهيم عليه السلام حين صبر على إيذاء قومه ، وقبوله هذا الابتلاء بقوة وعزيمة وإيمان.

إن المفسرين على حد قول الدكتور عبد الحليم محمود قد أرادوا أن يشرحوا إكرام الله له في هذا الموقف فقالوا : إن الملائكة تلقته تحمله في رفق حتى وضعته على الأرض فإذا عين ماء عذب وإذا ورد أحمر وإذا نرجس يحيط به ، وأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة.. كما أتاه بأريكة يجلس عليها ، وألبسه القميص وأجلسه على الأريكة وجلس معه يحدثه ويؤنسه ويقول له فيما يقول : يا إبراهيم إن ربك يقول لك : أما علمت أن النار لا تضر أحبابى.

ويمكث إبراهيم في النار بضعة أيام ، ويتحدث المفسرون أيضًا عن شعوره فيخبرون عنه أنه قال : ما كنت أيامًا قط أنعم من الأيام التى كنت في النار.

ولا شك أن حادثة إبراهيم وابتلاءه في نفسه ونجاته من النار لم تمر دون أن تترك أثرًا كبيرًا بين أهل الأصنام من قومه.. حيث رأى الناس أن رب إبراهيم حفظ إبراهيم وأن آلهتهم لم تتمكن من حماية نفسها فضلاً عن حماية غيرها.. ولذلك فلابد أن العقيدة في أنفسهم قد تزلزلت ولابد أن يكون البناء الإيمانى في هذه البقعة قد غير اتجاهه وأخذ يستشرف إلى الوضع الصحيح.

إذن.. المكافأة الكبيرة هذه المرة كانت قد أثرت وأسفرت عن قوم بادروا إلى الإيمان.. حين رأوا هذه المعجزة التي خرج منها إبراهيم عليه السلام سالمًا معافىً ، بل وساهمت هذه المعجزة التى ارتبطت بابتلاء إبراهيم عليه السلام في توسيع دائرة الإيمان بالله سبحانه وتعالى.. وذلك حين هاجر من بلاد قومه إلى بلاد أخرى سعيًا وراء الدعوة إلى الله تعالى ، ووحدانيته.

ونفهم من ذلك أن الصبر على الابتلاء سواء في النفس أو في المال أو فى الأولاد.. إنما يثمر ثمرات متنوعة المذاق والحجم.. وكلها ثمرات عظيمة يجنيها

الإنسان من وراء صبره على الابتلاء.. ولنا في رسولنا الكريم إبراهيم عليه السلام أبى الأنبياء أسوة حسنة.. إذ آتاه الله الخير كله بعدما صبر وشكر وتحمل الابتلاء في نفسه.

الابتلاء فى الولد

ويستمر مسلسل الابتلاء في حياة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام.. وهو صابر محتسب عند ربه، قانتًا آناء الليل وأطراف النهار، يدعو الله بأن يفرج عنه كربه وبلاءه.

والابتلاء في حياة هذا النبى هذه المرة كان أشد قسوة وقوة، فقد اختبره رب العالمين في أعز ما لديه من أولاد. ذلك الطفل الحليم الذي رزق به وهو في أخريات أيامه.. وكان قد بلغ آنذاك من عمره عتيا.

ويا له من ابتلاء كان في ظاهره القسوة وفى باطنة الرحمة.. إذ رأى إبراهيم الخليل عليه السلام في منامه أنه لابد وأن يذبح ابنه الوحيد إسماعيل.. واستجابة لهذا النداء ولهذه الرؤيا، أخذ ابنه متجهًا به إلى جبل عرفات لكى يقضى عليه ذبحًا!.. وكاد أن يقع ذلك على يد هذا النبى الكريم لولا أن تداركته رحمة الله في الوقت المناسب.

وقصة الذبيح إسماعيل عليه السلام قد ملأت كل كتب السيرة، وأيضًا كتب التاريخ لما فيها ولها من دلالات عظيمة، ورغم ذلك فقد اختلف المفسرون والرواة في تناول تفاصيلها وأهدافها ونتائجها.. ولكنهم عندما تحدثوا عن إبراهيم عليه السلام ودوره في هذه القصة أجمعوا على صبره على هذا الابتلاء وقوة تحمله له، وهو في هذه السن المتقدمة من عمره!.

ونحن هنا بدورنا نعيد الإشارة إليها.. لخدمة الأهداف فوق هذه الأوراق

التى تسعى لبيان قوة تحمل وصبر صفوة خلق اللّه من الأنبياء والرسل على الشدائد والبلايا..

وجميعنا يجب أن يتصور.. كيف حال إبراهيم عليه السلام وهو يقتاد فلذة كبده لكى يذبحه بيديه ! ، ولكى نكون منصفين في الحديث عن ابتلاء إبراهيم عليه السلام في ولده الوحيد إسماعيل ، كان لابد لنا من القول بأن هذا الابتلاء في حقيقة الأمر لم يبدأ من الرؤيا التى رآها إبراهيم عليه السلام في منامه والتى حدثنا عنها القرآن الكريم.. بل ، لقد بدأ هذا الابتلاء منذ صدور الأوامر التى تلقاها هذا النبى الأمين من رب العالمين ، بالذهاب بامرأته وولده الرضيع إلى أرض مكة. الصحراوية الخالية من الماء والزرع.. ولقد فعل ذلك راضيًا بقضاء اللّه وقدره ، وبأنه على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم..

ولقد تجلت قوة صبر وجلد واستسلام إبراهيم عليه السلام لقضاء السماء بلا ضجر أو مناقشة ، عندما عاد راجعًا إلى بلاد الشام تاركًا زوجه هاجر وابنها الرضيع إسماعيل هناك.. في تلك الصحراء القاحلة.

وحتى عندما سألته زوجه : وهل أمرك ربك بذلك ؟. أجابها. نعم.. فما كان منها إلا أن قالت : إذن فاذهب فلن يضيعنا اللّه أبدا.. ولذلك فنحن نقول : إن ابتلاء إبراهيم عليه السلام في ولده ، قد مر بمرحلتين كل منهما كانت أشد من الأخرى.. فإذا كنا قد تصورنا حال هذا النبى من قبل حين أتاه أمر السماء بذبح ولده الوحيد آنذاك.. فما بالنا إذا ما تصورنا كذلك حالته النفسية ، وذلك حين صدر له نفس الأمر السماوى بضرورة أن يهاجر بزوجه وبابنه إلى أرض صحراوية لم يكن بها ماء ولا حياة ؟ !..

ولكن نتبين الحكمة والموعظة من ابتلاء إبراهيم عليه السلام في ابنه مثلما وقفنا من قبل على أسباب ابتلائه في أبيه وفى نفسه.. كان علينا أن نسير مع القصة

من بدايتها وذلك منذ أن خرج مهاجرًا إلى اللَّه ومصطحبًا ابنه وزوجه على راحلة قيل إنها جمل وقيل أتان (أى أنثى الحمار) متوجهًا بهما إلى أرض الحجاز حيث مكة المكرمة.. وحتى وقوع حادث الذبح فوق أحد جبال هذه المدينة المقدسة..

وكالعادة فقد تحدثت كل كتب السيرة وقصص الأنبياء عن بداية هذا الابتلاء الذي عايشه إبراهيم عليه السلام سواء فوق أرض الشام بعدما أُمر بالرحيل وزوجه وابنه، أو فوق أرض مكة التى عاش بها وملأ أرضها بركة وذرية.. وكما سبق أن ذكرنا فإن العديد من المفسرين يميلون إلى القول بأن بداية ابتلاء إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه إسماعيل، كانت منذ أن قرر هذا النبى الكريم أن يسافر ومعه زوجه إلى حيث أمره رب العالمين..

وينقل لنا الأستاذ أحمد بهجت صورة وصفية رائعة لرحلة إبراهيم عليه السلام وذلك قبل استقرار زوجه وابنه فوق أرض مكة.. فيقول: «استيقظ إبراهيم يومًا فأمر زوجته هاجر بأن تحمل ابنها وتستعد لرحلة طويلة، وهاجر هذه هى المرأة المصرية التى أهداها إليه ملك مصر، عندما كان في زيارة لها هو وزوجته سارة التى لم تكن تلد.. وكان زوجها الخليل إبراهيم آنذاك، قد صار عجوزًا وأبيض الشعر خلال عمر طويل أنفقه في الدعوة إلى اللَّه تعالى.. وبعد أيام بدأت رحلة إبراهيم عليه السلام مع زوجته هاجر ومعهما ابنهما إسماعيل.. وكان طفلاً رضيعًا.. لم يفطم بعد!.. وظل إبراهيم عليه السلام يسير وسط أرض مزروعة فأتى بعدها صحراء، تجىء بعدها جبال.. حتى دخل إلى صحراء الجزيرة العربية وقصد إبراهيم واديًا ليس فيه زرع ولا تمر ولا شجر ولا طعام ولا مياه ولا شراب.

فنزل إبراهيم من فوق ظهر دابته، وأنزل زوجته وابنه وتركهما هناك، ولما سار حتى أخفاه الجبل وقف ورفع يديه الكريمتين إلى السماء وراح يدعو اللَّه ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]

وكلنا يعرف بطبيعة الحال بقية القصة التى أثمرت عن وجود أمة الإسلام ودعوة نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام -، ثم قصه ماء زمزم.. هذه العين الربانية التى نبتت فوقها حضارة العرب منذ أن فجرها إسماعيل عليه السلام وحتى يومنا هذا ، حيث استجاب اللّه لدعوة نبيه إبراهيم الذى ترك فلذة كبده وسط هذه النيران المشتعلة فوق رمال الصحراء والتى تحولت على مدار الأيام والسنوات والأزمنة الطويلة إلى واحة للسلام والأمان والإيمان ، وهى الأرض المباركة التى عرفناها باسم مكة المكرمة.. والتى يوجد بها البيت الحرام.. أول بيت وضع للناس لعبادته في الأرض.

ولنا أن ننظر كيف أثمر صبر إبراهيم الخليل عليه السلام ، واستسلامه لقضاء اللّه وقدره ، هذه الثمار الطيبة التى مازلنا نتذوقها في صورة تعاليم الإسلام إلى يومنا هذا وحتى قيام الساعة.. وهى التى بدأت مع تفجر أول عين ماء ، ووجود شعب ثم شعوب آمنت باللّه رب العالمين.. رب موسى وهارون وإبراهيم ومحمد عليهم أفضل الصلاة والسلام.

لقد عاش إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر وسط بيئة طيبة ووسط قوم من الذين اهتدوا إليهما عن طريق ماء زمزم وقد أقاموا معهما.. واتخذوهما من الأهل والعشيرة.. وبعد ثلاثة عشر عامًا كما يحكى ذلك التاريخ رجع إبراهيم لرؤية ابنه الذي سره حبه لعمل الخير.. الأمر الذي شجعه كثيرًا على أن يقيم مع ابنه ومع زوجته هاجر فوق أرض مكة..

وجاء إبراهيم عليه السلام إلى حيث يقيم ولده هذه المرة لكى ينفذ أمرًا لله تعالى.. في رفع قواعد البيت الحرام الذي بناه آدم عليه السلام حين نزوله إلى الأرض لكى يعبد فيه رب العالمين. وكان ساعده الأيمن في رفع قواعد هذا البيت ابنه إسماعيل عليه السلام.

وبعد إتمام بناء هذا البيت العتيق ، ومن قبل أن يعود إبراهيم عليه السلام من حيث أتى إلى أرض فلسطين التى كانت تقيم فيها زوجه الأولى مع ابنها إسحاق.. وقع الشق الثانى من حادث الابتلاء.. حيث أمره ربه من خلال رؤيا في منامه أن يذبح ابنه إسماعيل.. وعن ذلك يقول القرآن الكريم. ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ۞ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۞ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۞ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۞ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۞ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۞ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۞ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۞ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : ٩٩- ١١٣]

وكما هو واضح من سياق الآيات السابقة فإن القرآن الكريم بأسلوبه الجميل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قد صور لنا هذا الابتلاء في أحسن تصوير.

بل وأكثر من ذلك فقد بين القرآن الكريم النتائج المباشرة وغير المباشرة التى جناها إبراهيم عليه السلام من وراء صبره واحتسابه نفسه وولده لله سبحانه وتعالى..

ولكى نتصور معًا حجم هذه المصيبة التى ابتلى بها إبراهيم عليه السلام في ابنه وهو كبير في السن.. تعالوا نستمع معًا لما قاله الإمام الراحل الشيخ الشعراوى في تفسيره للآيات السابقة : « إبراهيم عليه السلام لم يبتل بالنار وحدها بل ابتلى في آخر أيامه بأن أمره الله بذبح ولده الوحيد.

والإنسان في أول حياته تكون ذاتيته هى المسيطرة على نفسه ، ولكنه في أواخر حياته تكون ذاتية أولاده فوق ذاتيته ، فقد اقتربت حياته من النهاية ولذلك فهو يريد أن يعطى أولاده كل شيء ويريد أن يحقق لهم ما لم يحققه لنفسه..

وهكذا عندما كبر إبراهيم وصار شيخًا جاءه الابتلاء الثانى بأن يذبح ولده.

ولنبين قوة هذا الابتلاء على نفس إبراهيم نقول : إن إبراهيم أصبح في سن كبيرة.. وحسب تقدير الأسباب فإنه من المشكوك فيه أن ينجب ولدًا آخر ، إذن فإسماعيل هو كل عزوة إبراهيم في الدنيا.. وإذا بالأمر يصدر من اللَّه ليس بأن يقتل إسماعيل ، فربما كان ذلك هينًا على النفس بأن يعطى إبراهيم ولده لعدد من الناس يأخذونه بعيدًا عنه ويقتلونه. لقد كان في ذلك نوع من الرحمة في القضاء ولكن اللَّه سبحانه وتعالى أمر إبراهيم بأن يأخذ ابنه ويذبحه بيده.

إنه ابتلاء كبير جاء عن طريق رؤيا لإبراهيم ورؤيا الأنبياء حق[1].

وفى نهاية تعليق الإمام الشعراوى على هذا الابتلاء قال : إن كل قضاء للَّه ولو لم نعرف له حكمة. فمن أصيب بمصيبة فما عليه إلا الرضى ، وما دامت المصيبة لا دخل لحركة الإنسان فيها ، وإنما أجراها عليه اللَّه.. فلابد أن نعلم أنه لا يوجد خالق يفسد ما خلق ، ولا صانع يفسد ما صنع.

إذن فلابد أن تكون هناك حكمة للخالق وإن لم نفهمها ، وبالتالى فطريق الخلاص من أى نائبة من النوائب هو بالرضا ، وما دام يوجد رضا حقيقى ينتهى كل شيء. ولكن الذي يحزن عندما يصاب بمصيبة فلا يرضى ويفتح باب الحزن ، ولو كنا حقيقة نعقل ونفكر لأغلقنا باب الحزن وفتحنا باب الرضا.

* * *

(١) قصص الأنبياء ، الشيخ محمد متولى الشعراوى ، جـ٧ .

٤- سيدنا لوط عليه السلام

رسول الأخلاق الحميدة

نستطيع أن نؤكد أن لوطًا عليه السلام من أنبياء اللّه ورسله الذين اصطفاهم لإبلاغ قومه أول رسالة أخلاقية نزلت من السماء ·· والمعنى المقصود من وراء ما ذكرناه ·· هو أن كل رسالات السماء التى حملها من قبل لوط عليه السلام ومن بعده جاءت فى الأساس برسالة واحدة مؤداها أن نعبد اللّه الواحد الأحد وننبذ عبادة ما دونه ، ونكون جميعًا مسلمين للّه موقنين بوحدانيته ، ومع ذلك فقد أضاف رب العزة بعض المهام الأخرى ·· لبعض رسله وأنبيائه من الذين بعث بهم إلى البشر ، وكان فى مقدمة هذه المهام تعليم الأقوام القيم الأخلاقية الحميدة التى تحفظهم وتحفظ النسل ، وهذه القيم كما نعلم كثيرة ومتنوعة ·· منها ما هو ظاهر ومحسوس ومنها ما هو معنوى لا نلمسه إلا فى الأفعال كنتائج مسلم بها·

ونبى اللّه لوط يُعد وفق هذا التصور ·· من أوائل أنبياء اللّه ورسله الذين حملوا إلى قومهم رسالتين ·· إحداهما تبغى التوحيد وتدعو إليه ·· والثانية وهى خاصة لقومه هى الدعوة للأخلاق الحميدة ونبذ المعاصى والمنكرات ، والتى كان فى مقدمتها نبذ الفحشاء ·· حيث كان الرجال يأتون الرجال شهوة من دون النساء !! ··

هذا الفعل الفاضح وللأسف قد ارتبط حتى يومنا هذا باسم النبى الكريم لوط ·· فأخذنا نسمع عبارات تستحق العقاب لمن يقولها ·· وكلنا قد سمع كذلك عن « اللوطيين » ! ·· و« اللواط » !! · إلى آخره من الألفاظ التى بات الناس يفهمونها

منسوبة إلى نبى اللّـه لـوط !· مـع أن العكـس هـو الصحيـح ·· إذ إن هـذه الأفعـال الفاحشة إنما تنسب لقومه وليس لجلال شخصه ورسالته ، وقد ذاب هؤلاء القوم الفاسقون وباتوا أسفل هذه الأرض وفى جوفها الموحش ·· بعدما قذف اللّه بهم عقاب جريمتهم هذه إلى قاع أحد بحاره المالحة !·

وظل النبى لوط عليه السلام ·· رمز الأخلاق الحميدة والدعوة إلى نبذ كل ما هو دون ذلك من الأفعال التى تشين الإنسان ، وتلوث أخلاقه ··

ولقد حفلت كتب السير وقصص الأنبياء بالعديد من الدراسات الحيوية عن هذا النبى الكريم وعن نسبه وحياته وصبره وحسن خلقه ·· لذلك فضلنا أن نبدأ حديث الابتلاء فى حياته بتقديم تعريف واف عنه وعن قومه ، قبل الوقوف بالتفصيل على ملامح ابتلائه سواء فى قومه الذين خدعوه وارتكبوا فاحشة لم يرتكبها أحد من العالمين من قبلهم ! ، وكان ابتلاؤه فيهم كبيرًا ومؤثرًا ، ثم ابتلاؤه كذلك فى امرأته التى انضمت إلى قومها فى تشجيع الفاحشة !·

ولوط عليه السلام وفق الإجماع هو ابن أخى إبراهيم الخليل - عليهما السلام - ·· وكان قد آمن مع إبراهيم عمه وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه اللّه إلى أهل سدوم وأعمالها ، التى أهلكهم اللّه بها ودمرها عليهم ، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ، وهى مشهورة ببلاد الغور ، والمتاخمة لجبال بيت المقدس ، وقال ابن كثير: إن لوطًا هو ابن تارح وهو آزر ، ولوط لذلك هو ابن أخى إبراهيم الخليل ·· ، فإبراهيم وهاران وناحور إخوة ، وهاران مات فى سن مبكرة فكفل إبراهيم لوطًا· لذلك كان ملازمًا لعمه فى مسيرته من أور إلى حاران ثم إلى دمشق ، كما رافقه فى زيارته لمصر ، وكانت له أغنام وعبيد وكانت ثروته منفصلة عن ثروة عمه إبراهيم·

ويرى العديد من المؤرخين أن هناك شبه تلازم بين قصة حياة لوط عليه السلام وقصة حياة عمه إبراهيم عليه السلام ·· سواء من حيث النشأة أو الرسالة· وإن اختلفا

فى المكان والهدف ، وقد ذكر لنا القرآن الكريم جزءًا من هذا التلازم فى قوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧١]. كما أكد لنا القرآن الكريم أن لوطًا من المرسلين فى قوله تعالى فى سورة الصافات ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات : ١٣٣].

وهناك لطيفة جميلة من لطائف التفاسير المعقولة قد أشار إليها حجة الإسلام الإمام الشيخ الشعراوى ، فيما يخص قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ ولم يقل أخوهم .. كما قيل بالنسبة لثمود أخاهم صالحًا ، وعاد أخاهم هودًا ، وبيان ذلك يرجع إلى أن لوطًا لم يكن من هذا المكان الذى بعث فيه ، فلوطًا كان هو وإبراهيم فى مدينة بعيدة ، ثم جاء إلى هذا المكان فرارًا من الاضطهاد هو وإبراهيم ، وفى هذه الحالة يكون طارئًا عليهم .. ولذلك لم يقل أخاهم الذى كان يقيم معهم ، ولكنهم قومه بمعنى أنه عاش معهم فترة فعرفوا أخلاقه وصفاته ، وأنسوا به لفترة من الزمن جعلتهم يعرفونه معرفة بعضهم لبعض ، وهذا يدل دلالة واضحة على دقة التعبير فى القرآن الكريم.

ابتلاؤه فى قومه

بعدما عاش لوط عليه السلام سنوات معدودات بين قومه الذين نزح إليهم تاركًا عمه إبراهيم عليه السلام فى أرض كنعان .. وتنفيذًا لأمر اللّه تعالى .. اكتشف أن بهم علة أخلاقية لم يسمع أو يشاهد مثلها من قبل ! وقد أتاه أمر السماء بضرورة التصدى لهذه الفحشاء ومقاومتها بكل شدة وبلا أدنى تهاون.

ولقد أقام لوط عليه السلام فى مدينة سدوم يدعو أهلها إلى عبادة اللّه وأن ينتهوا عما كانوا يقترفونه من فحش فى مجالسهم واعتدائهم على الغرباء.

وكما وردت قصة لوط عليه السلام مع قومه فى سور متعددة فى القرآن الكريم منها

كما يقول الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر: سورة الأعراف، وهود، والحجر، والأنبياء، والشعراء، والنمل، والعنكبوت، والصافات، والقمر، كما تكرر اسم «لوط» عليه السلام مع قومه فى القرآن الكريم سبعا وعشرين مرة ..

ففى سورة الأعراف قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ۞ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ۞ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۞ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۞ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤].

وفى سورة هود آيات كريمة، تحدثت عن جانب مما دار بين لوط عليه السلام وقومه من محاورات، انتهت بهلاكهم وتدميرهم حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۞ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۞ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۞ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ۞ قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۞ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ۞ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٧٧ - ٨٣].

والمعنى كما يقول الدكتور طنطاوى فى تفسيره: «وبعد أن علم قوم لوط بوجود هؤلاء الضيوف عند نبيهم، جاءوا إليه مسرعين يسوق بعضهم بعضًا إلى بيته من شدة الفرح، ومن قبل هذا المجىء كان هؤلاء القوم الفجرة يرتكبون السيئات الكثيرة التى كان من أقبحها إيتاؤهم الرجال شهوة من دون النساء. ولما لم تفلح معهم نصائح لوط وإرشادهم بضرورة التوقف عن هذا العمل الذى صمموا

عليه مع ضيوفه ، وهم لا يعلمون حقيقة كونهم ·· ولا لوط نفسه ·· حيث كانوا ثلاثة من الملائكة المكرمين بعث اللّه بهم لهلاك قوم لوط ·· وقد تحرك هؤلاء الملائكة مفصحين عن حقيقة شخصيتهم ومهمتهم التى بعثوا من أجلها ، وذلك عندما رأوا الضيق قد بلغ ذروته داخل صدر النبى لوط عليه السلام بعدما رفض قومه نصائحه بالالتزام بالعفة والأدب ، وقالوا له ، وفق ما ذكره القرآن الكريم : ﴿ **قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ** ﴾ [هود : ٨١]·

عندئذ نهض جبريل عليه السلام وأشار بيده إشارة سريعة ففقد القوم المندفعون نحوهم أبصارهم ، وراحوا يتخبطون داخل جدران المنزل فخرجوا منه وهم يظنون أنهم يدخلونه ، وقد طمست إشارة جبريل عليه السلام أبصارهم·

ليس هذا فقط ·· بل لقد أخبر الملائكة لوطًا بالنتائج السيئة التى سوف تطول قومه بعد ساعات بعينها ، وبالتالى عليه أن يأخذ أهله ويبتعد عن هذه القرية، وحتى لا يصيبه ما سوف يصيبهم من العذاب والهوان·

ولقد التفتت الملائكة على حد قول أحمد بهجت إلى لوط وأصدروا إليه أمرًا أن يصحب أهله أثناء الليل ويخرج ·· وسيسمعون أصواتًا مروعة تزلزل الجبال ·· وبعد ساعات سوف يطولهم عذاب يقضى عليهم جميعًا ·· فامتثل لوط لأمر الملائكة ·· وبالفعل أخذ أهله فى جنح الليل هاربًا من هذه القرية الظالمة التى ينتظرها عذاب أليم بعد لحظات·

وعندما اقترب الصبح حسب وعد الملائكة جاء أمر اللّه تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ مَنضُودٍ ۝ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** ﴾ [هود : ٨٢-٨٣]·

وفى تفسير العلماء لهذه الآية كعقاب إلى قوم لوط قالوا : لقد اقتلع جبريل عليه السلام بطرف جناحه مدنهم السبع من قرارها البعيد ، رفعها جميعًا إلى عنان

السماء حتى سمعت الملائكة أصوات الديكة ونباح الكلاب بهذه المدن ، وقد قلب هذه المدن وهوى بها إلى الأرض ·· وأثناء هذه العملية كانت السماء تمطرهم بحجارة من الجحيم ، وقد أتت عليهم جميعًا حتى هلكوا ، ونجا لوط وأهله إلا امرأته كانت كذلك من المهلكين ·· لأنها خانته ووقفت مع قومها ضد دعوته إلى اللّه ، وهذا هو الابتلاء الثانى فى حياته - عليه السلام -·

وبعد وقوع العذاب الأليم على قوم لوط وهلاكهم جميعًا ·· وبعد نجاة لوط عليه السلام وأهله إلا امرأته ·· زار عمه إبراهيم حيث كان يقيم فى أرض كنعان وأخذ يقص عليه نبأ قومه ·· وأدهشه أن إبراهيم كان يعلم ذلك مسبقًا !·

ومن بعدها مضى لوط فى دعوته إلى اللّه غير آسف على قومه ، وإن كانت فعلة امرأته وخيانتها قد أثرت فيه فصبر ورضى بقضاء اللّه الذى عوضه خيرًا منها كما سنرى ذلك حالاً·

الابتلاء فى الزوجة

لقد لاحظنا أن حديث القرآن الكريم عن خيانة امرأة نوح عليه السلام والذى اعتبرناه نحن ابتلاء من اللّه فى أهله ·· لم يُذكر إلا فى آية واحدة من سورة التحريم ·· وجاء هذا الذكر ضمن حديث رب العزة عن خيانة امرأة لوط أيضًا ، والذى نعتبره كذلك نوعًا من الابتلاء الذى صبر عليه لوط وجزاه اللّه خير الجزاء ، وذلك عكس ما كان من أمر القرآن الكريم بالنسبة لخيانة امرأة لوط عليه السلام إذ جاء ذكرها فى أكثر من آية وأكثر من سورة قرآنية ، والسبب فى ذلك فى تصورنا هو فداحة ما ارتكبته امرأة لوط عليه السلام ·· التى أبلغت قومها كما يقول ذلك أغلب المفسرين بقدوم فريق الملائكة المكلفين بتعذيب قومها لما ارتكبوه من فحشاء لم يسبقهم بها أحد من العالمين ··

وهذا يعنى أن القرآن الكريم يتهم امرأة لوط بالخيانة وبالانضمام لقوم فاسقين يرتكبون الفحشاء وهى توافقهم على ذلك !.

فقد تحدث القرآن الكريم عن امرأة لوط فى سورة التحريم إذ قال رب العالمين : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [التحريم : ١٠].

وفى تفسير هذه الآية يقول الدكتور رشدى البدراوى .. إن خيانة امرأة لوط عليه السلام تمثلت فى إخبار قومها بضيوفه وكانت كافرة وغير مؤمنة برسالته ، ولما علم القوم بهم جاءه قومه يهرعون إليه ، جاءوا محمومين مسرعين ، ولعل لوطًا تساءل بينه وبين نفسه عمن أخبر القوم بضيوفه .. وقد دلته حاسته النورانية التى استمدها من رسالته أنها لابد وأن تكون امرأته ، وهى التى غابت عن البيت قليلاً بعد حضور هؤلاء الضيوف.

ولقد حزن من غدرها وإفشائها سر ضيوفه وهو الأمر الذى حرص على كتمانه..

وفى سورة العنكبوت تحدث القرآن الكريم أيضًا عن امرأة لوط فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [العنكبوت : ٣٣ ، ٣٤].

وفى تفسير هذه الآية الكريمة قال الدكتور محمد جميل غازى رئيس المركز الإسلامى لدعاة التوحيد والسنة رحمه الله تعالى : الغابرون هم فى تعريف العصر « الرجعيون » فامرأة لوط عليه السلام امرأة رجعية مرتبطة بمجتمعها ، لكنه لم يستعمل لفظ « رجعية ، وإنما استعمل لفظ غابر .. ومنطق الرجعية فى مفهوم القرآن

الكريم هو الرجوع إلى تقاليد بالية وإلى أخلاق فاسدة وإلى عقائد منحرفة لم يردها اللَّه ولم يشرعها ..

وفى سورة الحجر جاء أيضًا ذكر امرأة لوط عليه السلام .. حيث قال رب العالمين: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۞ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ [الحجر: ٦٥- ٦٦]

وفى سورة الشعراء قال رب العالمين عن امرأة لوط: ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۞ إِلا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ ۞ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ۞ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ۞ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١٧٠ - ١٧٥].

وهذه الآيات السابقة فيها تفسير أكثر لمصير امرأة لوط. إذ أمر رب العالمين ملائكته أن يأمروا لوطًا وأهله بالابتعاد عن هذه الظالمة، وألا يلتفت أحد من أهله إلى الوراء إلا امرأته التى كُتب عليها العذاب. فنظرت إلى الخلف فتحولت إلى تمثال من الملح أو من الحجارة وفق أقرب تفسير، وقد أصابها من العذاب ما أصاب قومها من جراء ما ارتكبته من أعمال الخيانة ..

ولنا أن نتصور ذلك الشعور الحزين الذى أصاب لوطًا عليه السلام حين فوجئ بالعذاب يحل بامرأته التى قيل إنه أنجب منها بنتين وولدًا نجاهم اللَّه مع والدهم لوطا. وقد تقبل هذا النبى الكريم حكم ربه فيما ابتلاه، راضيًا بما قدر عليه، وصبر صبرًا جميلاً .. وإنا لنراه قد أحس بالرضا والغبطة حين نجاه اللَّه وبقية أسرته من المؤمنين .. بعدما رأوا ما جرى للقرية الظالم أهلها .. والتى انقلبت رأسًا على عقب، وضاعت معالمها تحت البحر الميت على أكثر التفاسير.

كما أننى على يقين من أن هذا النبى رغم حزنه على انضمام امرأته للقوم

الكافرين كان يتمنى وقوع العذاب عليها لوقوفها فى صفوف هؤلاء الكافرين ، ولكنه الابتلاء والصبر والقدوة .. والشعور بالرضا بقضاء اللّه وقدره.

ولما نجّا اللّه لوطًا وأسرته الصغيرة دون امرأته .. رجع مرة أخرى إلى عمه إبراهيم عليه السلام فى أرض كنعان ، ولقد أفاض اللّه عليه الخير الكثير .. وبارك له فى أولاده وفى ثروته عوضًا عما فقده أثناء هذا الابتلاء العظيم.

ويؤكد على ذلك الدكتور رشدى البدراوى فيما رواه فى كتابه عن قصص الأنبياء والتاريخ ، الجزء الثانى .. بقوله : وأقام لوط عليه السلام فى مدينة صوغر ، وظل يدعو الناس إلى عبادة اللّه. وزوج ابنتيه ممن ارتضاهما خلقًا ودينًا ، وكان عمره آنذاك لا يزيد على خمس وأربعين أو خمسين سنة. فلابد وأن اللّه قد أبدله بزوجة مؤمنة شابة بدلاً من تلك العجوز الخائنة ، فولدت له ابنه الكبير مؤاب ، ومن بعده ابنه عمن ، فالمؤابيون هم ذرية مؤاب بن لوط وسميت أرضهم باسم مؤاب. والعمونيون هم أبناء بنى عمن الابن الأصغر للوط. وقد ارتحل هو وأبناؤه وأحفاده فى المنطقة الواقعة شمال البحر الميت وشرقى نهر الأردن ، وكانت عاصمتهم « ربة » أو « ربة عمون » ومكانها الآن مدينة عمان عاصمة الأردن[1].

* * *

(١) قصص الأنبياء والتاريخ ، جـ٢ ، مصدر سابق.

٥- سيدنا يعقوب عليه السلام

أول أحفاد الخليل إبراهيم

لأكثر من خمسة عشر يومًا ظل العقل والقلب والضمير، كل منهما مشغول فى بيان موقفه من قصة ابتلاء سيدنا يعقوب عليه السلام ٠٠ خاصة وأن هذا النبى الكريم لم يشر إليه الكثير من المؤرخين فيما يخص حالات الابتلاء إلا حين ابتلاه رب العالمين فى ولده يوسف عليه السلام وبقية أولاده الأحد عشر !٠

وبعد هذه المدة من التفكير داخل نفس كاتب هذه السطور ٠٠ وبعد استقرار هؤلاء الأبطال الثلاثة العقل والقلب والضمير على ضرورة وجود هذا النبى الكريم ضمن الصحبة المباركة لهؤلاء الأنبياء والرسل من الذين ابتلاهم اللّه ٠٠ فقد بات علينا أن نفسح له الأوراق تلو الأوراق لكى نحدثكم عما لاقاه من ابتلاءات سواء فى ذاته حين رماه بعض مؤرخى أهل الكتاب بالكذب وتقولوا عليه الأقاويل غير الصحيحة ٠٠ حين ادعوا تحايله على أخيه من أبيه إسحق لكى ينال درجة البكورية والتى كان لها شأن عظيم آنذاك وكما سوف نبين ذلك فى حينه !٠

ومن بعد ابتلاء البشر لهذا النبى الكريم بالأباطيل ٠٠ جاء موعده مع الابتلاء الأكبر الذى دبره رب العالمين بخصوص ما فعله أولاده فى أخيهم الصغير يوسف عليه السلام، الأمر الذى جعله يعيش فى لوعة من فقدان صغيره ٠٠ وتفرق بقية الأولاد٠

هذا الابتلاء بعينه قد جر عليه ابتلاء آخر فى صحته ٠٠ حين ذهب بصره من كثرة الحزن والبكاء على ابنه الصغير يوسف وفراق بقية الأولاد !٠

وفى ظل هذه الابتلاءات الشديدة صبر سيدنا يعقوب عليه السلام وتمسك بوعود

اللَّه له ·· فجزاه اللَّه خير الجزاء ·· حين لم شمله وأولاده بعدما رزق اللَّه ابنه يوسف بمُلك وعرش مصر، وكذلك استرد صحته وعافيته وعاش مكرمًا فى ظل رعاية اللَّه ·· بعد هذا الصبر الطويل ، وحتى توفاه اللَّه·

وكان علينا من قبل الوقوف تفصيلاً على هذه الابتلاءات التى اختص اللَّه بها عبده ونبيه يعقوب عليه السلام ·· ضرورة معرفة الشىء اليسير عن حياة هذا النبى الكريم ، وأصله ونسبه ·· خاصة وأنه يعتبر وفق ما جاء بالقرآن الكريم الحفيد المباشر لسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ، من ولده إسحاق عليه السلام ··

ومما لاحظناه فى هذا السياق أن العديد من كتب التاريخ والتفسير قد اهتمت اهتمامًا خاصا بنبى اللَّه يعقوب ·· لسببين ، الأول أنه الحفيد الأول لسيدنا إبراهيم الخليل ·· والثانى لأنه والد يوسف عليه السلام ذلك النبى الكريم ، الذى اختصه رب العزة بالحكمة والجمال والحكم والنبوة·

ويقول شيخ الإسلام الدكتور محمد سيد طنطاوى عن موقع نبى اللَّه يعقوب فى القرآن الكريم : إن حديث القرآن عن يعقوب عليه السلام ·· قد تكرر بهذا الاسم ست عشرة مرة منها قوله تعالى فى سورة البقرة : **﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** [البقرة : ١٣٢]·

وفى سورة ص : **﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾** [ص : ٤٥]·

كما أطلق القرآن الكريم على يعقوب عليه السلام لفظ إسرائيل ، وجاء ذلك مرتين إحداهما فى قوله تعالى : **﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾** [آل عمران : ٩٣]

والثانية فى قوله تعالى : **﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن النَّبِيِّينَ**

مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم : ٥٨]

ولفظ إسرائيل معناه : كما يقول المفسرون صفوة اللَّه أو عبد اللَّه. وأما خطاب اللَّه تعالى لذرية يعقوب عليه السلام مع نسبتهم إليه فقد جاء فى أكثر من أربعين موضعًا.

وأما عن مولده ونسبه فيقول عنه الإمام ابن كثير فى تفسيره : إنه لما تزوج إسحاق عليه السلام وسنه أربعون عامًا ، وكان ذلك فى حياة أبيه إبراهيم عليه السلام فأنجب إسحاق من زوجه توأمين هما العيص ويعقوب. وأحيانا يطلق عليه بعض المؤرخين اسم عيسو ، ولما بلغ يعقوب سن الرشد تزوج وأنجب من الذكور اثنى عشر ولدًا ، حيث أنجب من زوجه « ليا » ستة أولاد هم : راءوبين وشمعون ولاوى ويهوذا وإيساخرا وزابلون ، وأنجب من زوجه « راحيل » اثنين هما يوسف وبنيامين، وأنجب من زوجه « زلفا » اثنين هما جاد وأشير ، وأنجب من زوجه « بلو » اثنين هما دان ونفتالى.

وقد نقل ابن كثير هذه الرواية عن مؤرخى أهل الكتاب الذين أضافوا أن يعقوب عليه السلام عندما دخل مصر كان عمره مائة وثلاثين سنة ، كما أقام بمصر سبع عشرة سنة. ثم لحق بربه وسنه مائة وسبعة وأربعون عامًا ، وقد استأذن يوسف عليه السلام ملك مصر فى الخروج مع أبيه يعقوب ليدفنه عند أهله فى فلسطين ، فأذن له وتم دفن يعقوب عليه السلام ببلده حبرون المسماة الآن الخليل بجوار جده إبراهيم وأبيه إسحاق عليهما السلام[1].

الابتلاء فى الذات

وهل من المعقول .. أن مثل هذا النبى الكريم الذى احتفل به القرآن العظيم، وسرد قبسًا من نور حياته وجهاده فى سبيل إعلاء كلمة اللَّه يتهمه قومه ..

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير ، جـ١ .

بالتزوير ! ! ·· حقيقة إنه شيء لا يصدقه العقل ، بل والأكثر غرابة أن هناك العشرات من المؤرخين المسلمين من الذين نقلوا ذلك عن روايات أهل الكتاب بلا فحص أو مناقشة سواء فى العصر القديم أو الحديث !·

وتلك هى القضية الخطيرة التى نبه إليها أكثر من عالم من علماء الإسلام ، الذين دعوا إلى ضرورة تمحيص كل ما كتبه أهل الكتاب وتابعوهم من المؤرخين!·

وها نحن نجدد هذه الدعوة بدليل ما سوف نذكره حالاً من قصص بها افتراءات عديدة على نبى اللّه يعقوب الذى هو نبى من الأنبياء الأخيار الذين اصطفاهم رب العالمين ، والتى نعتبرها هنا إحدى ابتلاءات هذا النبى الكريم فتعالوا معًا نستمع بآذان حذرة لما سوف نتلوه منقولاً من عدة مصادر كلها نقلت وللأسف عن أهل الكتاب ، بخصوص ما قيل عن النبى الكريم يعقوب عليه السلام فى أخلاقه ! ! ! ·

وما نود أن نشير إليه قبل سرد حالة ابتلاء هذا النبى الكريم فى ذاته ·· هو أن العديد من الأنبياء ومن رسل اللّه الأصفياء قد أصابهم ما أصاب النبى يعقوب ·· إذ لاحقهم قومهم بالإشاعات وافتراء الكذب عليهم ، ومما يزيد الأمر صعوبة فى حالة نبى اللّه يعقوب أن بنى إسرائيل وجميع أهل الكتاب قد لفقوا إليه الاتهامات بما رووه عن حياته زورًا وبهتانًا ، وظلت هذه الافتراءات وللأسف قائمة إلى يومنا هذا بدون تغيير أو تحميص أو تصحيح ، حتى وفق اللّه الأستاذ الدكتور رشدى البدراوى فخصص جزءًا كبيرًا من كتابه « قصص الأنبياء والتاريخ » فى جزئه الثالث - للدفاع عن النبى يعقوب وما أشيع عنه ، وكان دليله فى هذا الدفاع سور القرآن الكريم·

أضف إلى ذلك أن ما التصق بهذا النبى الكريم من افتراءات إنما ارتبط بمسيرة حياته منذ صغره ·· ولم ترتبط فى الواقع بحياته فى حال الرسالة الإلهية أو دوره كنبى كريم·

وسيتضح لنا ذلك بجلاء حين نستعرض معًا ما أشيع عنه من افتراءات ظالمة ابتلى بها من جانب قومه بنى إسرائيل وأكثرها من أهل الكتاب فيما كتبوه بأقلامهم وادعوا أنه منزل من السماء.

ونحن فيما سنرويه ، سنترك التاريخ يقول كلمته من واقع ما سجله أهل الكتاب ونقله عنهم للأسف بعض المفسرين الكبار من أمثال العلامة ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية ».

وتقول التوراة عن يعقوب عليه السلام .. الإصحاح ٢٥ من سفر التكوين : وكان إسحاق ابن أربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجة هى رفقة بنت بتوئيل - من فدان آرام ، وصلى إسحق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقرا ، فاستجاب له الرب، فحبلت رفقة ، وتزاحم الولدان فى بطنها فقالت إن كان هكذا فلماذا أنا ؟ فمضت تسأل الرب ، فقال لها : فى بطنك أمتان ، ومن أحشائك يفترق شعبان .. شعب يقوى على شعب وكبير يستعبد صغيرًا ، فلما أكملت أيامها لتلد. إذا فى بطنها توأمان .. فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر .. فدعوا اسمه عيسو أو العيص وفق رواية ابن كثير ، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو .. فدعى يعقوب .. وكان إسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما.

هذه هى بداية القصة كما جاءت بالتوراة ! .. مع أن القرآن الكريم حين تحدث عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام - لم يشر من قريب أو بعيد إلى عيسو أخيه التوأم ! ، مما يدل دلالة كبيرة على بداية الافتراء فى رواية التوراة على يعقوب عليه السلام ، ولقد أتوا بحكاية أخيه التوأم حتى يصلوا إلى ما سوف يرمون إليه من توجيه إساءات لهذا النبى الكريم ، وهكذا كان عهدهم مع كل أنبيائهم الذين جاءوا بعد يعقوب عليه السلام وبعد سيدنا موسى الكليم .. وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الافتراءات التى كان يوجهها بنو إسرائيل لأنبياء اللّه .. سواء بالتقول أو بالقتل ! !.

والشيء العجيب والمريب فى ذات الوقت أن افتراءات بنى إسرائيل على النبى يعقوب عليه السلام لم تتوقف عند حد بعينه ·· بل تمادوا كثيرًا فيما رووه ·· حتى اتهموه بالتحايل على أخيه عيسو وعلى أبيه إسحاق·

أما بالنسبة لتحايله على أخيه كما تروى ذلك التوراة فقالوا فى التفاصيل : « فكبر الغلامان ·· وكان عيسو إنسانًا يعرف الصيد ·· إنسان البرية ·· ويعقوب إنسانًا كاملاً يسكن الخيام فأحب إسحاق عيسو؛ لأن فى فمه صيدًا ·· وأما رفقة فكانت تحب يعقوب »·

إلى هنا والكلام معقول ·· ولكن الباقى من هذا الحديث المشوه فيه كلام كثير ويستحق تعليقات كثيرة·

المهم ·· أن يعقوب على حسب رواية التوراة - طبخ طبيخًا فأتى عيسو من الحقل وقد أعيا ·· فقال عيسو ليعقوب أطعمنى من هذا الأحمر[قيل عدس أحمر] لأنى قد أعييت ·· فقال يعقوب بعنى بكوريتك ! ! ·· فقال عيسو : ها أنا ماض إلى الموت ، فلماذا لى بكورية ·· فقال يعقوب : احلف لى اليوم ·· فحلف له· فباع بكوريته ليعقوب ·· فأعطى يعقوب عيسو خبزا وطبيخًا وعدسًا فأكل وشرب وقام ومضى ·· فاحتقر عيسو البكورية ! ! »·

انتهت رواية التوراة - ولكى يعرف قيمة أن يكون الإنسان بكرًا لأبيه وأمه كان علينا قراءة هذه الكلمات التى سطرها الأستاذ الدكتور رشدى البدراوى حيث قال : « الابن البكر هو أول ما يولد من الأولاد للرجل ، ولذلك فإن له مكانته الخاصة عند والده »·

وكان للبكورية ·· فى ذلك الزمان القديم امتيازات خاصة ، منها نيابة البكر عن أبيه فى البيت عند غيابه ·· كما كان عُرف هذا الزمان أن الرجل فى أخريات أيامه وعند شعوره باقتراب الأجل يقسم ماله على أبنائه على أن يعطى الابن البكر نصيب اثنين من هذه الأموال·

ليس هذا فقط. بل وكان الابن البكر هو الذى يختص بالبركة على شرط أن يكون مستحقًا لها وإلا فتعطى لغيره !.

هذه أولى الادعاءات الباطلة على نبى اللّه يعقوب حيث اتهمه بنو إسرائيل بالخداع والحيلة ضد أخيه البكر عيسو. ومما يدل على عدم صدق هذه الرواية .. وافترائهم على يعقوب عليه السلام أن القرآن الكريم لم يذكر إلا يعقوب عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾.

أضف إلى ذلك كيف يكون لشاب من صلب خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وولده النبى إسحاق عليه السلام أن يتصف بالخديعة والمكر ضد أخيه الكبير !!. وذلك قولهم بأفواههم وكذلك كتبوه بأقلامهم فيابئس ما قالوا وما كتبوا !.

والغريب أن بعض المؤرخين المسيحيين قد تناولوا هذا السلوك من جانب يعقوب عليه السلام .. حيث وصفوه بالانتهازية والوصولية واستغلال حاجة الغير لاغتصاب الحقوق !! ، هؤلاء الذين تعجلوا هذا الرأى لم يسمحوا لأنفسهم بقدر كاف من التفكير فى صفات وأخلاق أنبياء اللّه الذين يختارهم بعناية شديدة حيث قال : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ هذا الاصطفاء وهذا الاختيار كان له مدلول كبير .. إذ كيف يكون نبى اللّه ورسوله مثلاً غير صادق أو غير أمين؟ ! ، وهو المكلف بتبليغ رسالة اللّه بالتوحيد إلى عباده العاصين ؟ !. طبعًا إنه شىء غير معقول وغير مقبول بالمرة.

وأما ثانى هذه الادعاءات التى ابتلى بها يعقوب عليه السلام من قومه من بنى إسرائيل. وهى أيضًا باطلة بطلانًا مؤكدًا من غير مناقشة .. أن بنى إسرائيل وأهل الكتاب فيما رووه وكتبوه فى أوراق كتبهم قد اتهموا يعقوب عليه السلام بالتحايل والخداع ضد أبيه أيضًا وذلك لكى ينال بركته ويحمل من بعده رسالته ! فهل ذلك يعقل ؟ !. وكيف يتحايل ويخدع نبى أباه النبى الكريم إسحق عليه السلام ؟ !.

وتقول التوراة فى التفاصيل عن ذلك فى الإصحاح ٢٧ تكوين : « ٠٠ وحدث أن شاخ إسحق وكلت عيناه عن النظر، وأنه دعا عيسو ابنه الكبير وقال له : يا بنى، إنى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى ٠٠ والآن خذ عدتك وجعبتك وقوسك واخرج إلى البرية ٠٠ وتصيد لى صيدًا ٠٠ واصنع لى أطعمة كما أحب ٠٠ وأتنى بها لآكل حتى تباركك نفسى قبل الموت٠

وكانت رفقة سامعة ٠٠ فذهب عيسو إلى البرية وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائله : إنى قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلاً : ائتنى بصيد واصنع لى أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل موتى ٠٠ فالآن يا بنى اسمع لقولى فى ما أنا آمرك به ٠٠ اذهب إلى الغنم وخذ من هناك جديين من المعز فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يُحب فتحضرهما لأبيك ليأكل حتى يباركك ٠٠ فقال يعقوب لرفقة ٠٠ هو ذا عيسو أخى رجل أشعر وأنا أملس ٠٠ ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون وأجلب على نفسى لعنة لا بركة ، فقالت له أمه : لعنتك على يا بنى ، اسمع لقولى ٠٠ فذهب وأحضر لأمه فصنعت له أطعمة كما كان أبوه يُحب ، وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التى كانت عندها وألبست ابنها يعقوب ، وألبست يديه وملاسة عنقه من جلود جديى المعز وأعطته الأطعمة والخبز التى صنعت ، فدخل إلى أبيه وقال : يا أبت ، فقال هأنذا ٠٠ من أنت يا بنى ٠٠ فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بكرك ، قد فعلت كما كلفتنى ٠٠ قم واجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك ٠٠ فقال إسحق لابنه : ما هذا الذى أسرعت لتجد يا بنى ؟ !٠ فقال : إن الرب إلهك قد يسر لى٠

فقال إسحق : تقدم لأجسك يا ابنى ٠٠ أأنت هو عيسو ابنى أم لا ؟ فتقدم يعقوب إلى إسحق فجسه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو، ولم يعرفه ؛ لأن يديه كانتا مشعرتين كيدى أخيه عيسو ٠٠ فباركه ، وقال هل أنت هو عيسو ابنى ٠٠ فقال أنا هو فقال له : قدم لى لآكل من صيد ابنى حتى تباركك

نفسى ٠٠ فقدم له فأكل وأحضر له خمرًا فشرب ، وقال له إسحق تقدم يا بنى ٠٠ وشم إسحق رائحة ثيابه وباركه وقال : انظر رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه الرب ، فليعطك اللّه من ندى السماء ومن دسم الأرض٠ وفرغ إسحق من مباركة يعقوب ، وانصرف يعقوب ! ٠٠

وحدث أن عيسو أتى بصيده وصنع طعامًا كما أمره أبوه ، ودخل به إلى أبيه ٠٠ فقال له إسحق من أنت ؟ ! ٠٠ فقال : أنا ابنك بكرك عيسو ، فارتعد إسحق وقال : فمن هو الذى اصطاد صيدًا وأتى به فأكلت وباركته ؟ ! ، فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة وقال لأبيه : باركنى أنا أيضًا يا أبى ، فقال : قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك ، فقال : ألا إن اسمه يدعى يعقوب ٠٠ فقد تعقبنى الآن مرتين ! ، أخذ بكوريتى ، وهو ذا الآن قد أخذ بركتك٠ فحقد عيسو على يعقوب من أجل البركة٠ التى باركه أبوه ٠٠ وتوعد يعقوب بالقتل ، وكان يتكلم بصوت خفيض ، ولكن رفقة سمعته ٠٠ فأرسلت ودعت يعقوب وأخبرته أن عيسو ينوى قتله ٠٠ وقالت له : قم واهرب إلى أخى فى لابان فى حاران٠ وأقم عنده حتى يهدأ غضب أخيك عنك وينسى ما صنعت به » ! !٠

ويؤكد الدكتور البدراوى ، أن كثيرًا من الكُتاب والمفسرين قد اعترضوا على هذه القصة خاصة ، لأسباب تتعلق بإلصاق الخطيئة والغش لنبى اللّه يعقوب ونسبة الغفلة لنبى اللّه إسحق٠

والدكتور البدراوى نفسه قد اعترض بدوره على هذه الادعاءات ، مؤكدًا أننا أعلم الناس بتحريف أهل الكتاب للتوراة ، ومن الأليق بمقام النبوة الذى كان عليه إسحق ألا ننسب إليه الانخداع ، والأليق أيضًا بمقام النبوة الذى سيصير عليه يعقوب ألا ننسب إليه مكرًا ٠٠ وهكذا نجد أن هذا النبى الكريم قد تحمل فى حياته مكر بنى قومه ، وإيذاءهم له فى ذاته ٠٠ بالتقول والادعاء بالباطل وبما ليس فيه ٠٠ وإزاء هذا الصبر وعده اللّه بالخير ، وجعل فيه وفى ذريته وأولاده النبوة !٠

وهناك شبه إجماع بين المؤرخين على أن نبى اللّه يعقوب قد أصيب فى حياته بهذا الابتلاء ! ، الأمر الذى جعله يترك مسقط رأسه ورأس أبيه ويعيش بعيدًا بعد ما تزوج وأنجب اثنى عشر ولدًا ٠٠ كانوا هم أيضًا سببًا فى إصابته بالابتلاء الثانى كما سنفسر ذلك حالاً !٠

الابتلاء فى الأولاد

من أسوأ الأشياء على نفس الإنسان ، خاصة ذات المعدن الطيب ٠٠ أن يرى الحقد والبغضاء منتشرين بين أولاده ! ! ، ذلك لأن الأمنية الغالية لكل منا أن يصنع رجالاً داخل أسرته ومجتمعه الصغير ، هؤلاء الرجال لابد وأن يسود الحب فيما بينهم حتى ينفعوا أنفسهم وأهليهم ومجتمعهم ! ، وكثيرًا ما يبذل كل منا جهده وحياته وأمواله لأجل الوصول إلى هذه الغاية العظيمة ٠٠ فيرى الحب والإخلاص والتعاون يسود بين أولاده ، ويظل ذلك الحب مرفرفًا بأجنحة الملائكة على البيت الذى فيه هذه الأسرة المتحابة فى اللّه ! ، فما بالنا بأسرة نبى كريم اصطفاه رب العالمين لكى يكون نبيًا يدعو له بالتوحيد ونبذ عبادة الأصنام ! ؟ !٠

فقد رزق اللّه نبيه يعقوب عليه السلام باثنى عشر طفلاً من ثلاث زيجات بخلاف بنت واحدة هى دينة كان أعزهم على نفسه الولدين الأخيرين من حيث الإنجاب وهما يوسف عليه السلام وبنيامين ابنا زوجه الأخيرة وفق الإجماع بين المؤرخين وهى السيدة راحيل !٠

هؤلاء المؤرخون قسموا أولاد هذا النبى الكريم وفق هذا الترتيب : أنجب يعقوب عليه السلام أربعة أولاد من زوجه الأولى « ليئة ابنة خالة « لابان » كما تقول التوراة ٠٠ وهم : راوبين (روبيل) شمعون - لاوى - يهوذا٠

ثم أنجب من زوجه الثانية « بلهة جارية راحيل » اثنين هما : دنا -

نفتالى ومن زوجه الثالثة « زلفة » جارية « ليئة » أو « ليا » كلاً من الطفلين حادا واشير.

ثم عادت زوجه « ليئة » وأنجبت له ثلاثة أطفال أيضًا وهم : دينه وهى طفلة ويساكر المعروف فى العربية باسم إيساخر وزبولون المعروف باسم رابلون .. ثم أنجبت له زوجه الأخيرة راحيل كلاً من يوسف وبنيامين !.

فكان لهذا النبى سعادة لا توصف وهو يعيش وسط هذه الكوكبة من الأولاد .. وقد أخذ يزرع بينهم الحب والمودة والإخلاص لولا تدخل الشيطان الذى لعب برؤوس بعضهم لأجل التخلص من البعض الآخر ! !.

هذا الشيطان اللعين الذى لم تنفع معه دعوات هذا النبى الأمين الذى تفرغ لهداية قومه ودعوتهم لنبذ عبادة الأصنام وعبادة اللّه الواحد الأحد.

ولقد أراد اللّه بابتلاء هذا النبى الكريم فى أولاده أن يختبر قوة صبره وإيمانه رغم وجوده فى مصاف الأنبياء من البشر المصطفين الأخيار.

وقد صبر يعقوب النبى على هذا الابتلاء .. متقبلاً قضاء اللّه وقدره فى صبر وتحمل من دون شكوى أو ضجر.

إن العديد من المصادر التاريخية قد أكدت أن نبى اللّه يعقوب عليه السلام ظل هو وأولاده فى بلدة حبرون يدعو الناس للهداية وعبادة اللّه .. خاصة لمن كانوا حوله من قبائل الكنعانيين ، وهو فى ذلك لم يأت بشريعة جديدة ، بل ظل يدعو اللّه وفق شريعة جده إبراهيم عليه السلام .. وكان عمره آنذاك ٦١ عامًا.

وفى ظل هذا الجو الملىء بالتقوى والإيمان والدعوة إلى اللّه تعالى ، عاش يعقوب عليه السلام فى أمان اللّه ورعايته بعدما تزوجت ابنته الوحيدة « دينة » وحوله أولاده الأحد عشر ، لولا ما بدأ يشعر به آنذاك من بوادر سيطرة شيطانية على إرادة

أولاده من الذين أخذوا يعدون عدتهم للتخلص من أحب أبنائه إليه وهو يوسف عليه السلام وأخيه بنيامين !.

ولقد اهتم القرآن الكريم بابتلاء يعقوب عليه السلام فى أولاده اهتمامًا كبيرًا بدا واضحًا فيما جاء من آيات بينات فى سورة يوسف عليه السلام.

وتكاد تجمع معظم المصادر التاريخية على أن هذه المؤامرة التى راح ضحيتها النبى يوسف عليه السلام ، إنما وقعت له وهو فى سن التاسعة أو السابعة من عمره .. بينما كان أخوه بنيامين يبلغ من العمر عامًا واحدًا فقط !.

كذلك أنبأنا القرآن الكريم أن سيدنا يعقوب عليه السلام ، كان يعرف مسبقًا ما كان سوف يقع لابنه مع بقية أولاده ، وقد ضاق بهم من أفعالهم .. وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۞ قَالَ يَابُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يوسف : ٤- ٥].

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ۞ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ [يوسف : ٧-٨]

ورغم معرفة يعقوب النبى عليه السلام بهذا الابتلاء ، فقد صبر عليه وأخذ يتعامل مع هذا الموقف وفق ما يمليه عليه الله تعالى من وحى ونبوة فقد عرف أن كل شىء من تدبير العلى القدير .. وعليه بالصبر ودعوة الله أن يفرج كربه وشدته !.

وأخذ هذا النبى يدعو أولاده الباقين بعدما أخبروه بضياع يوسف ! ، بضرورة السعى الدؤوب فى البحث عنه لإرجاعه إليه مرة أخرى ! ، وقد كتم فى نفسه همًا عظيمًا .. إذ كان يشعر أن هؤلاء الإخوة هم الذين يقفون وراء هذا الغياب لابنه الصغير يوسف عليه السلام.

ولنا أن نتصور ولو للحظات الموقف الصعب الذى كان عليه يعقوب عليه السلام حين عاد إليه أبناؤه ليخبروه باختفاء أخيهم الصغير يوسف ، قال المفسرون عن ذلك : « لما عاد إخوة يوسف إلى أبيهم فى العشاء ما بين المغرب وعتمة الليل جاءوه وهم يبكون وقالوا له إن الذئب أكل يوسف ، إذ تركوه عند متاعهم وذهبوا وهم الكبار ليتسابقوا ، فأكله الذئب فى غيبتهم .. وقالوا لأبيهم ، ولن تصدقنا فى الذى أخبرناك به من أكل الذئب له.

وكانوا قد عمدوا إلى شاة صغيرة فذبحوها وأخذوا من دمها ووضعوه على قميصه ليوهموا أباهم بأن ما رووه عن أكل الذئب إنما هو قصة صحيحة ، ولعل يعقوب عليه السلام قد ارتاب فى رواية أولاده هذه لعلمه المسبق بعداوتهم ليوسف وحقدهم عليه !.

ولم يكن أمام يعقوب عليه السلام إلا الصبر على مصيبته هذه فى فقده ولده المحبوب لديه ، والصبر كذلك على أفعال بقية أولاده التى كان يقف وراءها الشيطان الملعون ، وقد استعان يعقوب عليه السلام بالله وبرحمته على هذا الابتلاء الذى عرف أن لا سبيل له فى دفعه ، ولابد لقضاء الله أن يتم.

ومع الصبر الذى كان عليه يعقوب عليه السلام .. ابتلاه ربه بالمرض خاصة فى عينيه .. على إثر فقد ولده وأفعال بقية أولاده وحقدهم وحسدهم على أخيهم الصغير.

الابتلاء فى الصحة

لقد سبق لنا أن ذكرنا أن الله تعالى حين اختبر يعقوب عليه السلام وابتلاه فى أولاده وابنيه يوسف وبنيامين. كان يبلغ من العمر آنذاك اثنين وستين عامًا وفق الإجماع.

ولنا أن نتصور حال مثل هذا الشيخ الوقور الذى اجتهد كثيرًا من أجل إبلاغ رسالة اللَّه ونبوته فيما يخص الدعوة لعبادته من دون الأصنام ، وما تحمله من مشاق فى سبيل تحقيق هذه الدعوة ، إلى جانب ما ابتُلى به من آلام نفسية عندما اختفى ولده الصغير وتفرق بقية إخوته.

ولو كان ذلك الأمر قد توقف بالنبى يعقوب عند تبعات الدعوة إلى اللَّه ومشاقها لأصبح ذلك الأمر هينًا ، ذلك لأن اللَّه يرسل رسله وأنبياءه مسلحين بالتأييد والقوة والصبر وحسن الخلق والنصر المبين.

ولكن ما زاد من ضعف ووهن هذا النبى الكريم ، هو كبر سنه إلى جانب ما لاقاه من حسد وحقد بقية أولاده على أخيهم الصغير يوسف. وقد أصابه ذلك بهم وغم كبيرين نجم عنهما أن أصيبت عيناه بالعمى المؤقت من كثرة بكائه على فراق ولده يوسف. وظل حزن هذا النبى يكبر يومًا بعد يوم .. كلما زادت الأيام وحشة ببعاد ابنه يوسف .. حتى أصيب من جديد فى ابنه بنيامين الذى تركه إخوته لدى يوسف عليه السلام عندما ذهبوا إلى مصر لابتياع حاجاتهم من الغلال !.

ويروى لنا ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۞ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ۞ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ۞ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [يوسف : ٥٨-٦٢].

ويقول الإمام الفخر الرازى فى تفسيره لهذه الآيات : اعلم أنه لما عم القحط فى البلاد ووصل أيضًا إلى البلدة التى كان يسكنها يعقوب عليه السلام .. وصعب الزمان عليهم فى فلسطين بالشام .. فقال لبنيه : إن بمصر رجلاً صالحًا يمير الناس : أى

يعطيهم الطعام وما هم فى حاجة إليه فى معاشهم فاذهبوا إليه بدراهم ، وخذوا منه الطعام ، فخرجوا إليه وهم عشرة ولم يبق منهم سوى « بنيامين » مع أبيه يعقوب ودخلوا على يوسف ، وصارت هذه الواقعة ، السبب فى اجتماع يوسف مع إخوته وظهور صدق ما أخبر اللّه عنه فى قوله ليوسف حال ما ألقوا به فى الجب : ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.

ويقول شيخ الإسلام الدكتور محمد سيد طنطاوى أيضًا فى تفسيره للآيات السابقة. « وجاء إخوة يوسف من بلادهم الشام متجهين إلى مصر؛ ليلتمسوا فيها وسائل العيش بعدما أصاب فلسطين القحط « فدخلوا عليه : أى : على يوسف بعد أن وصلوا إلى مصر « فعرفهم » يوسف بمجرد رؤيته لهم ، أما هم فلم يعرفوه لطول عهد فراقهم ، ولقلة اهتمامهم بشأنه بعد أن القوا به فى الجب ، وللمنصب العظيم الذى صار يشغله ، وهم ما توقعوا أن يصل يوسف إلى هذا المنصب ، ويؤكد الدكتور طنطاوى أن هذا اللقاء كان هو اللقاء الأول بين يوسف وإخوته بعدما ألقوه بالجب، ويرى بعض المفسرين أن هذا اللقاء قد تم بعد أكثر من ثلاثين عامًا من وقوع حادث الجب المشهور. ولقد وجدها يوسف عليه السلام فرصة سانحة لأجل أن يجمع شمل أسرته وأبيه مرة أخرى بعد هذا الفراق الطويل .. فاخترع حيلة يستطيع من خلالها أولاً أخذ أخيه الصغير بنيامين الذى كان فى أرض فلسطين مع أبيه. ثم بعد ذلك يأتيه كل إخوته وأبوه يعقوب.

وفى ظل ما كانت تعانيه بلادهم آنذاك من مجاعة شديدة وما رأوه فى مصر من بحبوحة العيش .. أقنعوا والدهم بضرورة أن يصحبهم بنيامين فى هذه الرحلة، وأمام إصرارهم وافق يعقوب عليه السلام .. وفى ظل غيابه وأخيه يوسف من قبل ، بل وكل أبنائه .. زادت آلامه .. وكان مع ذلك يؤمن بأن اللّه لن يخيب دعاءه ولسوف يجتمع مع كل أولاده من قبل رحيله. ويذكر لنا القرآن الكريم إصرار الأولاد على اصطحاب أخيهم

الصغير فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَاأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾.

فاستجاب لهم والدهم تحت ضغط الحاجة كما جاء بالقرآن الكريم ، مع تخوفه منهم نظرًا لأعمالهم السابقة .. وخشيته من تكرار تجربة فقدانه ليوسف كما حدث من قبل !.

وعن ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

ولقد ظلت عاطفة الأبوة فى مقدمة إحساسات يعقوب عليه السلام .. حتى أنه وقف يودعهم بقوله : ﴿ يَابَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ فياله من إحساس نابض بالحيوية ، يقابل الإساءة بالإحسان ، وهكذا دائمًا يكون الآباء فى ظل جحود الأبناء.

وفى تفسير كريم لهذا الموقف للشيخ الشعراوى قال : إن يعقوب عليه السلام أحس أن أولاده أصبح لهم شأن وهم أغراب ، وهم حين يذهبون لإحضار القمح يغادرون قريتهم إلى قرى غريبة ، فقد يكيد لهم الناس حين يعلمون أن معهم كميات كبيرة من الطعام ، وأولاد يعقوب كانوا أحد عشر بانضمام بنيامين لهم ، وربما خشى عليهم أبوهم من الحسد .. كما بين الحق سبحانه وتعالى أن هناك حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، فكأن يعقوب يخشى على أولاده من الحسد ، وهو يستعيذ بالله من ذلك ، مما يدل على أن البشر لا يقى نفسه من الحسد إلا بالاستعاذة بالله سبحانه وتعالى[1].

ولما رجع إخوة يوسف إلى أبيهم من دون « بنيامين » لا شك ازدادت حالة يعقوب الصحية سوءًا ولكن الله تعالى لم يتخل عنه فطمأن قلبه وأخبره بقرب

---

(١) قصص الانبياء - الشيخ الشعراوى ، جـ١٤ .

انفراج هذه الغُمة ، ولذلك نراه يقول كما جاء القرآن الكريم : ﴿ يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ ﴾.

وبالفعل عاد إخوة يوسف إلى مصر للمرة الثالثة .. وذلك كما أمرهم أبوهم ، وكانت حالتهم وحالة والدهم قد ساءت .. حيث فقد يعقوب البصر ، ولم يعد يقوى على العمل ، وظل قابعًا فى مكانة حزينًا يعيش على رحمة اللَّه والأمل فى انفراجة قريبة ، هذه الانفراجة التى جاءت مع حدوث ذلك اللقاء التاريخى الذى تم بين يوسف عليه السلام وبين إخوته ، والذى يصوره لنا القرآن فى قوله تعالى : ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٩٣]

وبالفعل اجتمع شمل يعقوب عليه السلام وأولاده مرة أخرى فوق أرض مصر ، تحقيقًا لوعد اللَّه تعالى سواء ليعقوب عليه السلام أو لابنه يوسف عليه السلام ، ونراه هنا قد عاش قرير العين حتى توفاه اللَّه ، فنقله يوسف إلى أرض فلسطين مرة أخرى ليدفن هناك بجوار زوجه « راحيل » ، وذلك على اتفاق المؤرخين.

وكان ما كان من أمر ابتلائه ، وصبره الجميل على هذه الابتلاءات وقد عوضه اللَّه خيرًا .. وهو النبى الكريم الذى تقبل فى رضًا وقنوت حكم اللَّه فيه وفى أولاده.

* * *

٦- سيدنا يوسف عليه السلام

صاحب أحسن القصص

لم يكن الحديث السابق عن ابتلاء يعقوب عليه السلام ليتم بدون الإشارة إلى ما وقع ليوسف عليه السلام .. إذ إن هذا النبى الكريم كان - أو لا يزال - جزءًا أصيلاً من أجزاء قصة ابتلاء أبيه يعقوب عليه السلام ، وفوق كل ذلك فقد بصرتنا قصة يوسف عليه السلام المعروفة بأحسن القصص ، بابتلاء ذلك النبى الكريم فى نفسه ، بخلاف ابتلاء أبيه يعقوب عليه السلام .

من هنا رأينا من الضرورى أن نفرد ليوسف عليه السلام ولحالات ابتلائه التى انحسرت فقط فى نفسه من دون أزواجه أو أولاده الصفحات تلو الصفحات ، لأجل أن تكتمل لدينا حالات ابتلاء الأنبياء ورسل الله المصطفين..

ولنا فى هؤلاء أسوة حسنة.. لكى نقتدى بهم ، ونعيش معهم وفى ظل ما عانوه من مشاكل ومصاعب وابتلاءات وهم من عباد الله المصطفين الأخيار.

ولقد تجلت صور ابتلاءات يوسف عليه السلام فى نفسه فى ثلاث صور.. الأولى ابتلاؤه بالابتعاد عن أبيه الذي أحبه وكذلك إخوته !. والصورة الثانية ابتلاؤه بدخوله السجن ظلمًا ! ، أما الثالثة عندما زعم إخوته أنه سرق مثلما سرق أخوه بنيامين ! !.

ولنا أن نتصور نبيا كريمًا مثل يوسف عليه السلام ، وهو يعيش هذه الصور الثلاث من صور ابتلائه ، صابرًا قانتًا لله - عارفًا بحكمته متقبلاً قضاء الله وقدره فى رضًا وقناعه.

ولسوف يتبين لنا أن مصائب البشر وابتلاءهم بالشر تهون دائمًا أمام ابتلاء الأنبياء الذين اصطفاهم رب العالمين لأداء رسالته وتبليغ كلماته تعالى لبنى البشر. فأى اختيار وأى اختبار لهؤلاء الصفوة من الذين خلقهم اللَّه لعبادته وتبليغ رسالته للبشر أجمعين.

ومن قبل الاستغراق أكثر فى بيان صور هذه الابتلاءات كان من الضرورى أن نعيش ومضات مضيئة من قبس من سيرة هذا النبى الكريم يوسف عليه السلام.

ووفق الإجماع فإن يوسف عليه السلام هو ابن يعقوب عليه السلام من زوجه راحيل ابنة خاله لابان، آخر من ولد فى حاران من قبل أن يتركها فى طريق العودة إلى أرض كنعان[1].

وجاء اسم يوسف عليه السلام فى القرآن الكريم بضم السين، وفى التوراة تنطق بكسر السين، وضم السين أجمل. حتى لا يختلط الأمر على الناس فيظنوا على حد قول الدكتور البدراوى أن الاسم مشتق من الأسف والمؤاسفة كما هو الحال لو نطقت بكسر السين[2].

وقال البعض: إن اسم يوسف مشتق من باساب العبرى بمعنى يُضيف ويكون يوسف. بمعنى يضيف أو ضيف اللَّه، وبعضهم قال: إنه مشتق من جذر عبرى بمعنى يخاف أو خائف، فمعنى يوسف هو خائف اللَّه. وقد أورد هذه الاشتقاقات قاموس الكتاب المقدس.

ويقول الدكتور محمد سيد طنطاوى: أن يوسف عليه السلام.. هو أحد أنبياء اللَّه الصالحين، وأبوه هو يعقوب، وهو كذلك من الأنبياء، وفى الحديث الصحيح عن ابن عمر - رضى اللَّه عنهما - أن رسول اللَّه ﷺ قال: « إن الكريم ابن الكريم ابن

---

(١) قصص الأنبياء والتاريخ - د. رشدى البدراوى، جـ٣.

(٢) من إعجاز القرآن، رؤوف أبو سعده، جـ١.

الكريم ، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، فهو نبى وأبوه نبى وجده نبى ، وجد أبيه نبى - عليهم الصلاة والسلام ».

كما ورد اسم يوسف عليه السلام فى القرآن الكريم سبعا وعشرين مرة.. ففى سورة الأنعام قال الله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٤].

كما ذكر يوسف عليه السلام مرة أخرى فى سورة غافر فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ [غافر : ٣٤].

أما المرات الخمس والعشرون الباقية فقد جاءت كلها فى سورة يوسف المعروفة بأحسن القصص ، وهى سورة مكية خالصة.. من السور القرآنية التى أنزلت على النبى محمد - عليه الصلاة والسلام - من قبل الهجرة ، وقد ورد فى سبب نزولها روايات متعددة منها : ما روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال : أنزل القرآن على النبى ﷺ فتلاه على أصحابه زمانًا ، فقالوا يا رسول الله ، لو قصصت علينا ، فنزلت سورة يوسف وعدد آياتها إحدى عشرة ومائة آية.

ويرجح الدكتور سيد طنطاوى - شيخ الأزهر - أن نزول هذه السورة على النبى - عليه الصلاة والسلام - إنما كان فى الفترة التى أعقبت حادث الإسراء والمعراج والتى اشتد فيها الأذى الذي أنزله المشركون بالنبى بعد وفاة عمه أبى طالب وزوجه السيدة خديجة رضى الله عنها.

كما روى كذلك أن من أسباب نزول هذه الآية - كما ذكر ذلك أحمد بهجت - أن اليهود سألوا رسولنا الكريم أن يحكى لهم عن يوسف أحد أنبيائهم القدامى.. وكانت قصته - عليه السلام - قد تعرضت للزيادة والنقصان فى كتبهم ، فنزلت فى كتاب الله كاملة بتفصيلاتها الصغيرة الدقيقة.

واختلف العلماء فى تسمية هذه السورة بأحسن القصص. ومما قيل فى هذا الشأن أنها تنفرد من بين قصص القرآن باحتوائها على عالم كامل من العبر والحكم ، وقيل : لأن يوسف تجاوز عن إخوته وصبر عليهم وعفا عنهم ، وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والعفة والغواية ، وسير الملوك والممالك ، والرجال والنساء وحيل النساء ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد والفقه وتبصير الرؤيا وتفسيرها فهى لذلك سورة غنية بالمشاهد والانفعالات ، وقيل : إنها سميت أحسن القصص لأن مآل من كانوا فيها جميعًا كان إلى السعادة.

الابتلاء بالاغتراب

وتتجلى أولى صور ابتلاء يوسف عليه السلام فى نفسه ، فى ابتعاده عن الأهل والأسرة وأبيه الذي أحبه حبا عظيمًا.. وذلك حين حُكم عليه وفق تدبير رب العالمين بأن يقاسى عذاب الاغتراب بعدما غدر به إخوته وألقوه فى غيابات الجب أو البئر العميق.

هذا الاغتراب بدأ مع الفكرة الشيطانية التى سيطرت على عقل هؤلاء الإخوة.. وقد تدخلت إرادة اللّه - عزوجل - لكى تغير من فكرتهم الأصلية بقتله - عليه السلام - أو بضربه حتى الموت !.

ويصور لنا القرآن الكريم تلك المفاضلة بين القتل أو إلقائه فى الجب ، وذلك عندما عقد إخوته العزم على ذلك.. فى قول اللّه تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۞ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۞ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف : ٧ - ١٠].

وهناك من المفسرين من أضافوا إلى تفسير هذه الآيات بعض أفكارهم الخاصة.. حيث أكدوا أن إخوة يوسف قد عذبوه وضربوه رغم إجماعهم على إلقائه فى الجب ! ، وأن أخاهم الصغير يوسف عليه السلام الذي كان يبلغ من العمر آنذاك سبعة أعوام.. قد أخذ يبكى مسترحمًا إياهم.. فتوقفوا عن ضربه.. عندما اقتربوا من الجب الذي ألقوه فيه !.

وكذلك بدأت الخطوة الثانية فى أمر اغتراب يوسف عليه السلام.. حين عثرت عليه إحدى القوافل السيارة.. وقد فرح كبيرهم - كما أكد ذلك القرآن الكريم - بنجاة الغلام ، وسارعوا ببيعه بدراهم قليلة.. فاشتراه أحد رجال الحكم فى مصر آنذاك وإن اختلفوا فى اسمه ومكانته ومنصبه.

ويصور لنا الكاتب الكبير أحمد بهجت هذه الخطوة فى ابتلاء يوسف عليه السلام فى عبارات بليغة وقوية.. فيقول : «لقد انطبقت جدران العبودية على يوسف ؛ لأنه تحول حكمه فى ذلك إلى حكم الأشياء المفقودة التى يلتقطها أحد.. فيصير عبدًا لمن التقطه .. هكذا كان قانون ذلك الزمان البعيد ، لقد ألقى فى البئر ، أُهين، حرم من أبيه ، التقط من البئر ، صار عبدًا يباع فى الأسواق ، اشتراه رجل من مصر ، صار مملوكًا لهذا الرجل ، اكتملت المأساة ، وصار يوسف بلا حول ولا قوة.. هكذا يظن أى إنسان.. غير أن الحقيقة شىء يختلف عن الظن تمامًا ، ولكن كيف »؟ !.

ويضيف أحمد بهجت قولاً عما آل إليه مصير يوسف عليه السلام فى هذا الابتلاء الذي قدره رب العالمين على هذا النبى الكريم : « وما نتصوره نحن مأساة ومحنة وفتنة ، هو أول سلم يصعده يوسف فى طريقه إلى المجد ، ذلك لأن اللّه غالب على أمره ينفذ تدبيره رغم تدبير الآخرين ، فها هو يوسف عليه السلام من خلال رعاية اللّه له.. يعيش فى محبة صاحبه الذي اشتراه وها هو ذلك السيد يقول لزوجه : أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وليس هذا السيد رجلاً هينًا ، إنما هو رجل مهم ، رجل من الطبقة الحاكمة فى مصر.. ».

ويؤكد رب العالمين فى كتابه العزيز أن ابتلاء يوسف فى نفسه بهذه الصورة التى ارتبطت بالاغتراب عن الأهل والأحباب ، إنما كان فى الوقت نفسه بداية أن مكن اللّه له فى الأرض ، وتلك هى المكافأة السماوية العظيمة التى نالها هذا النبى الكريم وكان لا حول له ولا قوة فيما فُعل به ، اللهم إلا أنه كان أحسن إخوته حلمًا وخلقًا وأدبًا ، وتلك جميعها هى شيم الأنبياء الذين أدبهم وعلمهم رب العالمين.

وفى ذلك يقول رب العالمين فى القرآن الكريم : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف : ٢١].

الابتلاء بالسجن

أما الصورة الثانية من صور ابتلاء هذا النبى الكريم يوسف عليه السلام فقد تجلت فى دخوله السجن ظلمًا .. حيث لم يرتكب فى حياته جرمًا أو معصية يعاقب عليهما .. بل بالعكس ، فقد دخل السجن وفق ما سوف نعرفه بعد لحظات ؛ لأنه امتنع عن فعل يعاقب عليه رب العالمين ، وقد استمسك باللّه وبقوته الذي أعانه على النجاة بنفسه مما دبرته له سيدة منزله وزوجة ذلك الحاكم الذي اشتراه وهو صغير!.

لقد كانت امرأة العزيز ترقب ذلك الفتى اليافع والذى ازداد جمالاً وقوة وفتوة بعد مرور سنوات طفولته ، وكانت تجلس إليه وتتحدث معه ، فيزداد إعجابها به لحظة بعد لحظة ، حتى جاء اليوم الذي اكتشفت فيه هذه المرأة أنها عاشقة ، وبدأت تظهر حبها ليوسف عليه السلام ، وكانت من قبل تنظر إليه كطفل فأحبته كما تحب الأم أطفالها الصغار.

ولما انقضت الأعوام بيوسف حيث كبر وترعرع داخل منزل سيده حتى قيل :

إنه قد بلغ آنذاك مرحلة الثلاثين من عمره ، أخذت تنظر إليه نظرة جديدة ، هى كأنثى وهو كرجل ، وتسلل هذا الشعور الجديد إلى نفسها ، وازداد شيئًا فشيئًا حتى ملك عليها كل حواسها.

ولقد صور لنا القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف : ٢٣].

ولولا رعاية اللَّه وعنايته لهذا النبى الكريم لاستطاع الشيطان التغرير به ليقع فى الخطأ ، وقد بين لنا ذلك أيضًا القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤].

ويؤكد الشيخ محمد متولى الشعراوى أن العلماء قد اختلفوا فى تفسير هذه الآية ، ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف ، فقد ثبت بالدليل القاطع أن نبى اللَّه يوسف عليه السلام قد امتنع عن ارتكاب الفاحشة بعدما دعته إليها هذه الزوجة حيث صرف اللَّه عنه السوء والفحشاء ؛ لأنه من عباد اللَّه المخلصين.

ويؤكد الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى - شيخ الأزهر - أن المتأمل فى هذه الآية الكريمة يرى أن القرآن الكريم قابل دواعى الغواية الثلاثة .. التى جاهرت بها امرأة العزيز والمتمثلة فى المراودة ، وتغليق الأبواب ، وقولها « هيت لك » ، بدواعى العفاف الثلاثة التى رد بها عليها يوسف ، والمتمثلة فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وذلك ليثبت أن الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة ، كان سلاح يوسف عليه السلام فى تلك المعركة الابتلائية العنيفة بين نداء العقل ونداء الشهوة.

وكذلك تثبت هذه الآية أن يوسف عليه السلام من عباد اللَّه المخلصين ، وأن نجاته من سلطان الشيطان الرجيم سوف تتم بإذن اللَّه ورعايته.

وهكذا دائمًا يكون رب العزة مع عباده الذين يتقونه فى الغيب ولا يخشون فى عبادته لومة لائم.

ولم تتوقف قصة يوسف عند حد نجاته من ظلم هذه المرأة.. وبالتالى لم تتوقف إشراقات ابتلائه بهذا الأمر.. إذ تصادف أن اكتشف أمرها زوجها وأحد أقربائها عندما بعث اللَّه بهما فى الوقت المناسب لكى يكتشفا بوادر هذه الجريمة وقد شاهدا الفصل الأخير منها. بعدما نجح يوسف عليه السلام وبقوة من اللَّه أن يفلت من كيد هذه المرأة وكان بينه وبين باب الهروب لحظات ، وكان قميصه الممزق من الخلف دليلاً على براءته.

وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٢٦ - ٢٨].

وهذه عناية أخرى من عنايات اللَّه بهذا العبد الصالح. إذ أراد أن يثبت براءته فورًا وبدون مساءلة أو تأخير وفى تفسير الدكتور سيد طنطاوى لهذه الآية قال : إن هذا الشاهد قد ذهب بعضهم إلى أنه كان ابن خال لها ، وقيل ابن عمها ، وقيل إنه كان صبيا فى المهد ، كما وردت بذلك بعض الآثار ، فقد أخرج ابن جرير والبيهقى والإمام أحمد فى مسنده ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ أنه قال : تكلم فى المهد أربعة وهم صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج وعيسى ابن مريم.

كذلك يؤكد الشيخ طنطاوى أن اللَّه تعالى قد سخر فى تلك اللحظة الحرجة من يدلى بشهادته ، لتثبت براءة يوسف أمام العزيز ، وألقى اللَّه تعالى هذه الشهادة على لسان من هو من أهلها لتكون أوجب للحجة عليها.. وأوثق لبراءة يوسف وأنفى للتهمة عنه.

والشيء اللافت للأنظار في سياق هذا الموقف هو سلوك زوج هذه المرأة !.
حيث نجد هذا الرجل صاحب المنصب الكبير يعالج هذه الجريمة التي تفور لها الدماء في العروق وتستلزم حسمًا وحزمًا في الأحكام ، بهذا الأسلوب الهادئ البارد، شأن المترفين في كل زمان ومكان ، الذين تهمهم ظواهر الأمور دون حقائقها. إذ لم يلُم زوجته أو يعنفها أو يعاقبها ، بل مسها بقوله مسًا خفيفًا ، يشبه المديح.

ثم طلب من نبي اللَّه يوسف عليه السلام كتمان الأمر، ثم يطلب منها التوبة من ذنوبها المتعمدة.

وتستمر الأمور بعد ذلك على ما هي عليه من بقاء يوسف معها في بيتها ، مع أنه كان من واجبه أن يبعد كل منهما عن الآخر اتقاء لتكرار هذه الجريمة ، لو كان غير يوسف عليه السلام في هذا الموضع ! ، واللَّه غالب على أمره ولكن أكثر الناس من عباده لا يعلمون ذلك !.

والغريب أن براءة يوسف عليه السلام ظلت في نطاقها المحدود ، إذ لم تخرج عن جدران منزل عزيز مصر.. لولا ما أشيع في البلاد من أمر هذه الجريمة وموقف يوسف عليه السلام منها ! ، هذه الشائعات ، جعلت امرأة العزيز تحاول أن تثبت لسيدات مجتمعها أنها كانت على حق في ارتكاب هذه الجريمة مع نبي اللَّه يوسف !.

ويحكي لنا القرآن الكريم بقية تفاصيل هذه القصة في قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۞ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ**

رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ۞ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ۞ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يوسف : ٣٠- ٣٤].

وفى هذا الموقف الجديد استخدمت امرأة العزيز المكر .. لكى تنال ما تريده من نبى اللَّه يوسف ، ويؤكد الشيخ الشعراوى فى خواطره الإيمانية بخصوص هذه الآيات أن الحديث القرآنى قد اتسع ، فالمشهد حتى قبيل هذه الآيات كان رباعيا. إذ إن أبطاله هم امرأة العزيز ويوسف والشاهد والعزيز نفسه ، إلا أن الخبر انتقل إلى خارج القصر ، مع حرص العزيز أول الأمر على أن يبقيه سرًا بين جدران القصر.

وأمام هذا الجمع الغفير من ضيوف هذه المرأة التى تخلت عن حيائها وتحفظها تمامًا. أعلنت : لئن لم يفعل ما آمره به فسوف أسجنه وأجعله من الصاغرين ، وأمام هذا العناد من جانب امرأة العزيز لم يجد يوسف من سبيل للخلاص من هذا البلاء ، إلا بالاستغاثة باللَّه ، حتى ولو دخل السجن لأجل ذلك !.

وهنا نرى أن يوسف عليه السلام قد أراد استبدال ابتلاء بابتلاء آخر أخف وطأة ، حيث رأى أن الابتلاء بالمعصية هو أشر هذه الابتلاءات ، ولا سبيل من النجاة منه إلا بعون اللَّه وتحقيق دعوته بدخول السجن.

ولقد لاقت هذه الدعوة هوى فى نفس العزيز وأعوانه .. حيث أصدر أوامره بضرورة أن يسجن يوسف ، إما استجابة لرأى امرأة ، وإما اتقاء لشر الفتنة التى بدأت تنتشر فى البلاد بسبب يوسف وفحولته وما اتصف به من جمال ونقاء ، وقد تقبل يوسف عليه السلام هذا الحكم الجائر بصبر وقناعة بأن اللَّه لن يخزيه أبدًا. ولسوف يظهر براءته عاجلاً أو آجلاً.

بل وأكثر من ذلك فقد أراد رب العالمين أن يبين لنا أن دخول يوسف عليه السلام ، إنما كان منحة وتقديرًا ، وليس عقابًا.

وهو من جانبه قد استغل عليه السلام فرصة وجوده بالسجن بين أقوام أبرياء يشعرون بالظلم لكى يدعوهم إلى الله ، كما كان السجن فى الوقت نفسه فرصة لكى يعيش يوسف عليه السلام مع نفسه ومع الله ، الذي أمده بالخيرات تلو الخيرات حتى أوصله من داخل السجن إلى كرسى عرش مصر ، وذلك حين احتاج إلى خدماته الملك لكى يفسر له أحلامه ويستنير برأيه فى قضايا المستقبل. لذلك فقد أصدر ذلك الملك أوامره بإخراج يوسف عليه السلام من السجن وإعلان براءته.

بل وأكثر من ذلك ، فقد أصدر ملك مصر آنذاك أوامره بأن يتولى يوسف عليه السلام أمر تصريف الشئون الاقتصادية فى مصر طوال الأزمة التى تنبأ بها الملك فى ذلك الحلم المشهود الذي حكى لنا عنه القرآن الكريم فى آيات بينات. وقد نجح يوسف عليه السلام فى ذلك نجاحًا باهرًا تصديقًا لقول الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف : ٢٢] ، فياله من جزاء عظيم نال شرفه نبى كريم.. من رب العالمين الذي يعلم السر وأخفى ، وتلك موعظة عظيمة لابد لنا من الوقوف أمامها طويلاً ، وتدبر معانيها وأهدافها ؛ لكى تكون خير معين لنا فى الخروج من مثل هذه الأزمات وتلك الابتلاءات.

الابتلاء بالاتهام بالباطل

وما كاد يوسف عليه السلام يخرج من ابتلاء السجن ، وهو قاب قوسين أو أدنى من التخلص من الابتلاء الأول والذى عرضه للاغتراب وفراق الأهل.. حتى أصيب بالصورة الثالثة من صور ابتلاءاته - عليه السلام - ، وذلك عندما اجتمع بإخوته فى المرة قبل الأخيرة ، وهم مجتمعون أمامه لأجل أن يميرهم بالمعونة الاقتصادية فى

ظل ما عانوه وأبوهم من مشاكل نجمت عن تلك المجاعة اللعينة ، وكانوا حتى هذه اللحظة لا يعرفونه كما أكد ذلك لنا القرآن الكريم ،

ولقد أراد يوسف عليه السلام بحيلته التى سبق وألقينا عليها الأضواء المبهرة عندما قرر احتجاز أخيه الصغير بنيامين.. أن يجمع شمل أسرته وأبيه من جديد بعد فراق دام فى أغلب الأقوال أربعين عامًا.

وانظر كيف قابل هؤلاء الإخوة.. حيلة يوسف عليه السلام باتهامهم إياه بالباطل.. أمام كل أعوانه ، وكان آنذاك يجلس على عرش مصر. إذ وقع هذا الاتهام على رأسه وقوع الصاعقة. مما أكد لديه أن هؤلاء الإخوة لا يريدون له الحب ولا الخير.. وأن الحقد لا يزال يملأ قلوبهم نحوه.. رغم مرور هذه السنوات الطويلة.

ولقد ذهب بعض المفسرين مذاهب غير مقنعة حين تطرقوا للحديث عن حادث السرقة المبين بالقرآن الكريم ، والذى أشار إليه إخوة يوسف عندما اتهموه وأخاه الصغير بنيامين !.. والقرآن الكريم لحكمة لا يعلمها إلا اللّه.. لا يشير لنا من قريب أو بعيد عن أصل هذا الاتهام ومدى صدقه من عدمه ، ذلك لأن اللّه تعالى يعلم تمام العلم ، أن عباده الصالحين.. أبدًا لا يمكنهم تصديق ما رواه إخوة يوسف عن سرقته السابقة ، وهو يعيش بينهم فى مرحلة الطفولة ، فالأنبياء ، معصومون من الأخطاء.. وقد نجاه اللّه بفضله وبرحمته من مكر امرأة العزيز ، فكيف باللّه نصدق ما يقوله هؤلاء المفسرون ، عن سرقة يوسف لبعض الأشياء وهو لا يزال صغيرًا ! !.

وحتى ولو كانت هذه الأشياء صنمًا أو ما شابه ذلك !.

ولقد بين لنا القرآن الكريم هذا الاتهام الباطل ، وردود أفعال الإخوة وكذلك موقف يوسف عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ **قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ**

لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ٧٧].

وفى كتاب عرائس المجالس للثعلبى ، قال فى تفسيره لآية السرقة التى رددها إخوة يوسف فى شأن أخيهم الصغير وشأن يوسف عليه السلام : راح إخوة بنيامين يلومونه لوجود الصواع فى رحله وقالوا له : فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل.. لا يزال لنا منكم بلاء إذ أخذت هذا الصواع.. فقال بنيامين : بل بنو راحيل الذين لا يزال لهم منكم بلاء ، ذهبتم بأخى إلى البرية فأهلكتموه. إن الذي وضع الصواع فى رحلى هو الذي وضع الدراهم فى رحالكم ، وواضح من هذا أن بنيامين لم يكن يعرف كيف جاء الصواع إلى رحله ، وتذكر أنهم لما عادوا بالميرة إلى أرض كنعان ووجد القصة معهم اعتقد أنهم سرقوها من العزيز بعدما أخذوا القمح.

ولعله ظن أنهم دسوا الصواع فى رحله ليكيدوا له فقد كانوا يكرهونه ، كما كانوا يكرهون أخاه يوسف من قبل ، ولعلهم من جانبهم ظنوا أن بنيامين قد سرق الصواع فعلاً لحقدهم عليه ، ولينفوا عن أنفسهم أى نقيصة فقد رأوا أن يثبتوا عليه السرقة بل وجعلوا السرقة طبعًا فى أبناء راحيل[1].

أما الشيخ الشعراوى فله رأى وجيه فى تفسير هذه الآية وإن كان لا يختلف كثيرًا عما قاله الثعلبى حيث ذكر الشعراوى فى خواطره المرتبطة بقصص الأنبياء : إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن إخوة يوسف قالوا له. إن يسرق فلا تتعجب يا عزيز مصر ، لماذا؟ !. لأن هذه خصلة فى أولاد راحيل ، لقد سرق أخوه الأكبر من قبلها وهكذا اتهموا يوسف وأظهروا حقدهم عليه. وهم لا يدرون أنه هو العزيز الذي يخاطبونه.

---

(١) عرائس المجالس للثعلبى ، مصدر سابق.

وحين يسمع يوسف هذا الكلام لابد وأن تخرج الملكات عن استقامتها.. لأن اتهام إنسان برىء بالسرقة ، لابد أن يحزنه ويؤلمه ، ولذلك لابد وأن يحدث انفعال مضاد.. هذا الانفعال إما أن يبقى داخل النفس فلا يخرج ، وإما أن يظهر فيحدث رد فعل عنيف ، وأن يوسف عليه السلام يستطيع أن يبرئ نفسه من تهمة السرقة، كأن يقول لهم : أنا لم أسرق وأخى لم يسرق ، وأنتم الذين يملأ الحقد قلوبكم علينا ، ولكنه لو فعل ذلك لكشف عن شخصيته وهو يريد أن يبقى مجهولاً لديهم.. فهو برىء من السرقة وأخوه برىء ولكنه لا يستطيع أن يتكلم ، واقرأ قوله تعالى : ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾(١).

وهكذا نرى أن هذا النبى الكريم قد تحمل فى نفسه وتحامل عليها لأجل أن تتم إرادة اللَّه وتنفذ مشيئته ، ولم يفكر مطلقًا فى رد هذا الاتهام عن نفسه وهو عزيز مصر وملكها !.

وقد جزاه اللَّه على هذا الموقف الصعب خير الجزاء.. إذ فرج عنه جميع ما ألم به من كربات واجهته منذ طفولته. بل وأذهب عنه كل ابتلاءاته فى لحظات حين قدم إليه والده يعقوب عليه السلام وجميع إخوته ، بعد فراق دام سنوات طويلة.

ولقد اختلف العلماء فى نوع هذه السرقة التى ارتبطت بيوسف عليه السلام وفق اتهام إخوته.. فقال سعيد بن جبير وقتادة : إنه سرق صنمًا لجده فكسره وألقاه فى الطريق ، وقال ابن جريج : إن أمه أمرته أن يسرق صنمًا لخاله. وواضح كما يشير الدكتور البدراوى أن هذه الأقوال تشير إلى الصنم الذي أخذته أمه راحيل من أبيها « لابان » عند مفارقة يعقوب له وتركه حاران.

ولكن نظرة إلى جدول حياة يعقوب تبين أن يوسف كان عمره وقتئذ سنة واحدة مما ينفى هذا الزعم.

---

(١) قصص الأنبياء. الشيخ الشعراوى ، جـ١٤ .

ومن الآراء الأخرى التى قيلت بشأن هذه السرقة قول مجاهد : جاء سائل يومًا فسرق يوسف بيضة من البيت وأعطاها السائل. وقال غيره : دجاجة.. وقال وهب : كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء ، وهذا ليس بسرقة ، وقال الضحاك وغيره : كان ليوسف عمة ، وكانت تحبه حبًا جمًا .. إذ كانت هى التى تولت تربيته هو وبنيامين من بعد رحيل أمهما راحيل ، فلما كبر وأراد يعقوب أخذه احتالت بأن دست فى ثيابه بعض متاعها ، قيل إنها منطقة أبيها إسحق ، وكانت هى أكبر من يعقوب فورثتها واتهمت يوسف بسرقتها ، ووجدوها عنده ، وحسب شريعتهم سلموا يوسف لها فبقى عندها حتى ماتت !!.

ويعلق الدكتور البدراوى على هذه الرواية بقوله : إنها مزيفة حيث لم يُعرف ليعقوب أختًا أكبر منه ! ، ونحن بدورنا نؤيد ما قاله الدكتور البدراوى من أن هذه الرواية لا أساس لها من الصحة ، وبالتالى نرى كيف تحمل هذا النبى الكريم هذه الافتراءات التى ابتُلى بها لا لشىء إلا لأنه من عباد اللَّه المصطفين الأخيار الذين وصفهم اللَّه تعالى فى حالات ابتلاء واختبار كبيرين وهو أعلم بما فى نفوسهم ونفوس غيرهم من عباده.

ولقد لاحظنا من خلال متابعة متأنية لسياق قصة يوسف عليه السلام.. أنه رغم ما مر به من مشاكل وصعاب واجهت حياته منذ صغره.. إلا أنه صبر وشكر ، وكان ملجأه دائمًا اللَّه سبحانه وتعالى.. الذي وقف بجانبه وأخذ يسرى عنه ويدفع ما حوله من شرور ومصاعب.

وفى المقابل أخذ يوسف عليه السلام يوطن نفسه على التحمل بلا شكوى ، كما عهد إلى نفسه أيضًا أن يقابل الإساءة بالحسنى وتلك جميعًا من شيم وصفات الأنبياء ، فما بالنا نحن البشر من الذين يجب عليهم التأسى بسير هؤلاء العباد المصطفين من أجل أن نتبوأ مكانة قريبة منهم وقد نصل لمكانة مساوية لهم إذا أخلصنا العمل للَّه سبحانه وتعالى، هذه المكانة التى لابد وأن يسبقها إيمان عميق باللَّه وبرسله وبكتابه العزيز والسعى لإقامة شعائر اللَّه لوجه اللَّه فقط.

٧- سيدنا أيوب عليه السلام

مضرب الأمثال

سبحان اللَّه العظيم الذي طبع عباده بصفات خاصة ، كيف يشاء ، وجعل لكل منهم ميزة فى نفسه وفى أخلاقه ، وكذلك فعل رب العالمين بعباده من المصطفين الأخيار من طائفة الرسل والأنبياء إذ جعل لكل نبى مرسل صفة وميزة ورسالة فى أخلاقه وفى مهمته وهى لا تتبدل أبدًا ، وكثيرًا ما يُعرف بها هؤلاء الرسل حتى بدون الارتباط بواقعة بعينها.. أو حتى بدون ذكر أسمائهم.

ونبى اللَّه أيوب عليه السلام ، نعتبره فى مقدمة هؤلاء الأنبياء الذين يعرفهم الناس عبر التاريخ بصفة متميزة لم ترتبط بغيره من زملائه من رسل اللَّه.. إذ فاقت شهرته كنبى صبر على الابتلاء ضعف ما صبر غيره.. وقد فرج اللَّه عنه كربه وبلاءه وعوضه عن ذلك خيرًا كثيرًا.

ولقد اتفق معظم المؤرخين ، وكذلك رواة السير الخاصة بالأنبياء ، وأجمعوا كذلك على أن النبى الكريم أيوب عليه السلام قد أصبح مضربًا للأمثال فى الصبر دون غيره من الأنبياء والرسل ، وذلك لأنه صبر حين آتاه اللَّه النعمة ، فأخذ يشكره سنوات طويلة على ما رزقه من نعمة الأموال والأولاد والصحة ، كما ظل قانعًا بفضل اللَّه.. عندما أوحى إليه بأن يبلغ الناس رسالة الدعوة إلى اللَّه ونبذ عبادة ما سواه ، وكذلك تساوى هذا النبى الكريم فى صبره وقوة إيمانه عندما وقع عليه الاختبار العظيم ، فابتلاه ربه فى أمواله وأولاده وصحته. وبات لسنوات طويلة فقيرًا.. عليلاً يعيش على هامش الحياة.

ولقد ظل صابرًا على هذا البلاء العظيم يدعو اللَّه أن يفرج عنه من غير تبرم أو قنوط أو جزع مدة قدرها البعض بأكثر من ثمانية عشر عامًا !.

ولنا فى النبى أيوب عليه السلام - أسوة حسنة - كما كان لنا فى غيره من أنبياء اللَّه ورسله الكرام.. إذ جعله اللَّه مضربًا للأمثال على ألسنة عباده الذين يمرون بالأزمات والمشاكل.. يتخذون من قصته العبرة والعظة ، وهو نبى كريم اصطفاه اللَّه وكرمه واختاره لإبلاغ رسالته إلى قومه ، وقد نجح فى هذا الاختبار نجاحًا غير مسبوق ، فما بالنا نحن البشر الضعفاء ، الذين إذا ما ابتلاهم اللَّه باختبار صغير سواء فى الأهل أو فى الأموال نجزع ونتبرم ، ونلجأ إلى أنفسنا ناسين رب العالمين ، ويالها من فرصة سانحة وعظيمة يظهر من خلالها الشيطان ليقدم يد العون الخبيثة ! ، ويصور لنا حياتنا وكأنها جحيم لا نستحقه !.

وكعادتنا دائمًا.. ومن قبل أن نعيش وقائع ابتلاء الأنبياء.. ، كان علينا أن نتوقف عند حياة هذا النبى الكريم ، مثلما فعلنا مع غيره من المصطفين الأخيار.. نقتبس الشىء الكثير من الفائدة من نور حياتهم ونهتدى بهداهم سواء بالنسبة لأعمالهم فى الدنيا أو فى الآخرة.

ولقد لاحظنا فى هذا السياق أن كتب الأولين من أهل الكتاب قد حفلت بسيرة النبى أيوب ، وكذلك أكدها القرآن الكريم ، مع وجود فروق جوهرية سواء فى طريقة التناول أو فى التفاصيل التى رواها القرآن الكريم عن النبى أيوب وبين ما روته كتب التوراة !.

وكما اختلف المؤرخون فى نسب العديد من الأنبياء.. كذلك اختلفوا فى نسب النبى أيوب عليه السلام وإن كان قول الأكثرين على أنه من ذرية إبراهيم عليه السلام مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا** ﴾ [النساء : ١٦٣].

وبخلاف الآية الكريمة السابقة ، فقد ذكر الله تعالى نبيه الكريم أيوب عليه السلام فى آيات أخرى من سور قرآنية أخرى ٠٠ ففى سورة الأنبياء قال تعالى : ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٨٣]٠

وفى سورة ص فى قوله تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ** ﴾ [ص : ٤١]٠

ومن أشهر ما قيل بشأن نسب هذا النبى الكريم أنه ابن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ٠٠ وكان أيوب فى زمن يعقوب عليه السلام ، وكان صهره ، وكانت تحته بنت يعقوب ، وكان يقال لها : « كيا » وهى التى ضربها بالضغث وهى الحزمة من الحشيش الأخضر ، وقيل : إن زوجه التى ضربها بالضغث هى « رحمة بنت أرائيم » بن يوسف بن يعقوب٠

وقال الحافظ ابن كثير فى نسب أيوب عليه السلام : هو أيوب بن سارى بن رغوال ابن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم٠ وقيل : اسم أبيه موص بن عيسو٠ وقيل : موص ابن رزاح بن عيص ٠ وزعم بعض المتأخرين أنه من ذرية روم بن عيص ، كما حكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام ، وكان أبوه ممن آمن بإبراهيم٠ وعلى هذا فقد كان قبل موسى٠

أما ابن إسحاق فقال : الصحيح أنه كان من بنى إسرائيل ، ولم يصح فى نسبه شىء إلا أن اسم أبيه « أمص » والله أعلم ، وقال الإمام الطبرى : كان زمن أيوب بعد شعيب عليه السلام ٠ وقال ابن أبى خيثمة : كان بعد سليمان ، وكان عيصو تزوج من بشمت بنت عمه إسماعيل فرزق منها رغوال ، وهو صاحب البلاء المشهور فى صبره٠

أما الدكتور رشدى البدراوى وفقًا لنظريته التى بنى عليها كل ما حكاه عن أنساب الأنبياء ، فيرى أن أيوب عليه السلام هو من نسل عيسو أحد أبناء إسحاق عليه السلام ٠٠ وذلك فى قوله : بأنه من أبناء عيسو من زوجته

« بسمة » بنت إسماعيل أنجب رعوئيل وولد لرعوئيل زارح ، وزارح ولد موصى·· وموصى ولد له ابن سماه أيوب[1].

وقد شب أيوب فى ميسرة من العيش ، فقد كان أبوه وجده سادة فى قومهما وعلى ثراء كبير·· ولما بلغ أيوب الخامسة والعشرين من عمره أراد أبوه أن يزوجه من بيت يناسب ثراءه ·· وكان قد سمع عن أقربائه فى مصر بنى يعقوب ، وأن يوسف بن يعقوب كان عزيز مصر ورئيس وزرائها ، فشد الرحال إلى هناك وقابل أفرايم بن يوسف وطلب منه ابنته رحمة زوجة لابنه أيوب·· فوافق أفرايم ، وسافرت رحمة مع أيوب إلى أرض أدوم ، وكان أيوب ماهرًا فى التجارة ، أمينا فى معاملاته ، فنمت ثروته وأصبح يشار إليه بالبنان فى الثروة والتقوى ، إذ آتاه اللّه الملك والنبوة ·· فكان كثيرًا ما يطعم المسكين ويعطف على الفقراء ويكثر من الصدقات·

أما بالنسبة لاسمه عليه السلام فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن أيوب مشتقة من الأوب والتوب فهو التائب ، الآيب إلى اللّه·· وآب يؤوب وصيغة المبالغة أيوب·

ولقد أكد الدكتور البدراوى وغيره من العلماء والمفسرين أن إرادة اللّه قد شاءت أن يضرب مثالاً على الصبر فى شخص أيوب·· ليتأسى به الناس فى صبره ·· ويقتدوا به فى تحمل ما قد يصيبهم من مصائب وآلام ، فتهون عليهم مصائبهم وآلامهم ؛ إذ يرون هذا النبى الكريم قد ابتلى بأكثر منهم ولفترة طويلة ، فصبر مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾·

ولسوف يبدو لنا ذلك واضحًا بشدة حين نستعرض معًا حالات ابتلاء هذا النبى الكريم ، وقد بدأ الابتلاء فى الأموال ثم فى الأولاد وأخيرًا فى الصحة ، وكذلك اجتمعت هذه الابتلاءات الثلاثة فى حياة هذا النبى·· ، وفى وقت واحد تقريبا ! !·

---

(١) جـ٣ ، من كتاب قصص الأنبياء والتاريخ·

الابتلاء فى الأموال

ذكر الإمام الأكبر شيخ الإسلام الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه عن الأنبياء والرسل عن ثراء سيدنا أيوب عليه السلام ٠٠ « لقد آتاه اللّه ثراء عريضًا ونعمة موفورة ، وكان ثراؤه ألوانًا عدة ، كان عنده من الثروة الزراعية المتمثلة فى المزارع والحدائق والرياض الشىء الكثير ، كما يتحدث الإمام ابن كثير عن الأراضى المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران التى كانت له ، ثم يذكر ابن عساكر أنها كلها كانت له٠

أما الإمام أبو إسحاق النيسابورى المعروف بالثعلبى فيقول عن هذه الثروة فى كتابه « عرائس المجالس » ، منقولاً عن وهب وكعب وغيرهما أن اللّه اصطفاه وبسط عليه الدنيا ، وكان له الثنية من أرض الشام كلها سهولها وجبالها وما كان فيها ، وكان له من أصناف المال كله من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يكون لرجل أفضل منه فى العدة والكثرة وكان له بها خمسمائة فدان تبعها خمسمائة عبد ولكل عبد امرأة وولد ومال ويحمل آلة كل فدان أتان ولكل أتان ولد من الاثنين إلى ما فوق الخمسة ، وفى ظل هذه الأموال كان رجلاً تقيا رحيمًا بالمساكين يكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيف ، وكان شاكرًا لأنعم اللّه مؤديًا حقه ، وقد حفظه اللّه من عدو اللّه الشيطان أن يصيب منه ما أصاب غيره من أهل الغنى من الغفلة والتشاغل والسهو عن أمر اللّه تعالى بما هو فيه من الدنيا٠

وفى ظل هذه النعمة ، التى عاشها النبى الكريم أيوب٠٠ وفى ظل حبه للّه وتفانيه فى عبادته وإبلاغ رسالته لقومه٠٠ وقع عليه الاختيار والاختبار لأجل تمحيص إيمانه ، ولكى يكون للناس إمامًا فى الصبر إلى يوم القيامة٠

من هنا سلبه اللّه كل هذه النعم ٠٠ وبات بين عشية أو ضحاها من الفقراء المعدمين ! !٠ إذ يحكى التاريخ فى هذا السياق حكايات عديدة عن كيفية ضياع هذه الأموال الكثيرة والأراضى الزراعية غير محدودة الأعداد٠٠

والغريب أن العديد من الرواة قد أدخلوا الشيطان طرفًا فى ضياع هذه الأموال ، وربطوا فى ذلك بين حسده لتلك النعم التى تمتع بها النبى أيوب ، وبين رغبة الشيطان فى أن يثبت للّه وهو أعلم· أن نبيه الكريم لن يصبر ! !·

وقد شكك العديد من الأئمة الفقهاء والمفسرين فى هذه الروايات التى ربطت بين ضياع أموال أيوب عليه السلام وبين حيل ومكائد الشيطان·

من أجل ذلك امتنعنا عن ذكرها ، واكتفينا فقط بالقول بأن اللّه تعالى قد سلط بعض أدواته فى الطبيعة مثل الرياح وغيرها التى حصدت أموال أيوب عليه السلام ، وجعلتها كأن لم تغن بالأمس ، فضاع ماله كله ، وضياع المال أو زواله على حد قول الثعلبى هو المصيبة الفادحة والفتنة التى لا تصبر عليها الرجال·

وأمام هذا الابتلاء الشديد لم يجزع أيوب عليه السلام·· كما ظن ذلك الشيطان ·· بل استمر قويا فى دعوته إلى اللّه وفى عباداته الظاهرة والباطنة ، وفى دعوته الدائمة إلى اللّه بأنه أرحم الراحمين·

بل ولم يقتصر أمر جهاد أيوب عليه السلام ضد نفسه ، وإنما امتد ليجاهد الشيطان وأعوانه من الذين التفوا حوله لأجل أن ينالوا من صبره ، فكان أيوب كلما انتهي إليه بهلاك مال من ماله حمد اللّه ، وأحسن الثناء عليه ، ورضى بالقضاء والقدر ووطن نفسه بالصبر على البلاء حتى ما بقى له مال !··

عندئذ تحايل الشيطان على نفسه فأخذ يتحين الفرصة تلو الأخرى من أجل أن ينال من صبر أيوب وإيمانه القوى باللّه ، فاستمر يناوشه حينًا بعد حين·· خاصة عندما عرف بأمر ابتلائه الثانى فى وفاة أولاده وكان كذلك من الصابرين·

الابتلاء فى الأولاد

وما هى إلا أيام معدودات·· وبعدما ضاع مال هذا النبى الكريم·· أصيب فى

أولاده.. عندما ماتوا جميعًا.. وفى آن واحد !!. وهى المصيبة والفتنة المضلة والكارثة التى لا تتحملها قلوب الرجال ولا يقوى عليها صبرهم.

ومما يحكى فى سياق ضياع أولاد أيوب عليه السلام : أن القصر الذي كانوا يقيمون به قد تداعت أسسه وأركانه فى لحظات !، وكان أيوب آنذاك معتكفًا يناجى ربه أن يرفع عنه بلاء الفقر والحاجة !، أو ربما كان مشغولاً فى تبليغ رسالة رب العالمين لعباده من بنى قومه !.

عندئذ انطلق إبليس اللعين فرحًا بالابتلاء الجديد وكانت وجهته هذه المرة بلاء أيوب عليه السلام ، ويحكى بعض الرواة هذا الموقف بقولهم : إن إبليس انطلق إلى أيوب متمثلاً فى صورة المعلم الذي كان يعلم أولاده الحكمة ، وهو جريح مشدوخ الرأس والوجه يسيل دمه من دماغه فأخبره بذلك وقال له : يا أيوب لو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف قلب بهم القصر ، وكيف نكسوا على رؤوسهم وتسيل دماؤهم من أدمغتهم ومن أنوفهم وشفاههم ، ولو رأيت كيف شقت بطونهم وتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك ، فلم يزل يقول هذا ويردده حتى رق قلب أيوب لذلك وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه.

فاغتنم إبليس منه ذلك ، وصعد سريعًا بالذى كان من جزع أيوب ، وأصابه السرور ، ثم ما لبث أيوب أن أبصر فاستغفر وشكر فصعد قرناؤه من الملائكة باستغفاره وتوبته ، فبدروا إبليس وسبقوه إلى اللّه واللّه أعلم بما كان.. فوقف إبليس خاسئًا ذليلاً.. إذ لم ينجح هذه المرة أيضًا فى مهمته.. وهو أمام ذلك العبد الصابر الذى لم تهزه هذه الفاجعة فى إيمانه باللّه وبرحمته.. مثلما فشل من قبل فى هز إيمان أيوب عليه السلام عندما ابتُلى من قبل فى ضياع أمواله !.

ومع ذلك لم ييأس الشيطان وكذلك لم يستسلم أيوب عليه السلام ، وكانت مباراة غير متكافئة بين شيطان رجيم وبين عبد صالح آتاه اللّه النبوة والصبر.

ولقد أحس ذلك الشيطان ٠٠ بأن هناك ابتلاء ثالثًا لابد وأن يخضع أمامه نبى اللّه أيوب ! ، وبالفعل اختبره رب العزة فى صحته٠٠ فأخذ الشيطان على عاتقة هذه المرة أن يهزم صبر أيوب ، ولكنه فشل أيضًا ولسوف يفشل دائمًا مع المؤمنين باللّه وبرحمته٠٠ ولنتخذ من هذا النبى الكريم مثالاً نحتذى به فى مجاهدة الشيطان ، والانتصار عليه ، حيث فقد أمواله ومن بعدها فقد أولاده ، وها هو يفقد أيضًا صحته وقوته ، ويتحول من بعدها فى لحظات إلى شبح رجل يعيش فى وهن ، وليس حوله إلا زوجه الوفية التى نالت هى الأخرى جزاء صبرها٠

الابتلاء فى الصحة

ذكر الإمام الأكبر الشيخ محمد سيد طنطاوى فيما كتبه عن قصص الأنبياء٠٠ أن بعض المفسرين قد ذكروا قصصًا وأقوالاً فى غاية السقوط والفساد ، حيث ذكروا بخصوص مرض أيوب عليه السلام أنه - عليه السلام - مرض زمنًا طويلاً وأن الديدان تناثرت من جسده وأن لحمه قد تمزق !٠ وهذه كلها أقوال باطلة ، لأن اللّه تعالى عصم الأنبياء من الأمراض المنفرة ، التى تؤدى إلى ابتعاد الناس عنهم ، سواء أكانت أمراضًا جسدية أم عصبية أم نفسية٠

والذى يجب اعتقاده هنا أن اللّه تعالى قد ابتلى عبده أيوب ببعض الأمراض التى لا تتنافى مع منصب النبوة ، وقد اختلف العلماء والمفسرون فى نوع المرض الذي أصيب به أيوب عليه السلام٠٠ فمن قائل : إنه أصيب بمرض جلدى حيث انتشرت فى كل جسمه الدمامل ، وهذا الرأى يرفضه أكثر العلماء والمفسرين٠

وقال ابن كثير : إنه أصيب بالجذام فى سائر بدنه ، ولم يبق منه سليمًا سوى قلبه ولسانه يذكر بهما اللّه عزوجل ، ومن المفسرين من يرى أن أيوب عليه السلام أصيب بمرض غير منفر وأنه من الأمراض التى لا يظهر أثرها على البشر كالروماتيزم وأمراض المفاصل ، وهذا قول غير صحيح على الأرجح ، ذلك لأن قوله

تعالى : ﴿ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ ﴾ .. إنما يدل على أن المرض كان جلديا ، لأن الأمراض الجلدية هى التى تعالج بالغسول وما شابه ، ولا ينفى ذلك أنه كانت هناك أيضًا آلام فى المفاصل أو العضلات لقوله تعالى : ﴿ وشراب ﴾.

ويرى الدكتور محمد الظواهرى أحد أخصائيى الأمراض الجلدية .. أن مرض أيوب عليه السلام كان هو الالتهاب الجلدى مقبول الشكل ، وهو مرض مزمن ، وقد عرف حاليًا أن سببه هو نوع من الحساسية لمركب الجلوتين الموجود فى القمح والشعير والذرة والأرز ، والحساسية كما يرى هؤلاء الأطباء هى استعداد فى الجسم ، ورد فعل عنيف لبعض الأجسام التى تدخل ويتعرض لها الجسم.

وهذا التوصيف الطبى معقول إلى حد كبير ويتفق مع ما رواه الثعلبى فى كتابه « عرائس المجالس » من أن الشيطان قد تسلط على جسد أيوب عليه السلام ، فوقعت فيه حكة لا يملكها ولا يتماسك عن حكها ، وكان دائمًا يستخدم أظفاره فى هذا الحك. وكذلك حكها بالمسوح الخشنة ثم بالفخار والحجارة ، فلم يزل يحكها حتى نزف وتقطع لحمه !.

ولما رأى أيوب عليه السلام حالته الصحية تسوء يومًا بعد يوم ترك أهل قريته وعاش بعيدًا عنهم ، مكتفيًا بزوجه الوفية التى لم تتركه ، بل ودأبت جادة فى البحث عن لقمة عيش طاهرة لها ولزوجها المريض !. وبعض من أقاربه أو أصدقائه ، وذلك مصداقًا لقول رسولنا الكريم فى حديث صحيح رواه أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد.. إلا رجلين من إخوانه ، كانا من أخص إخوانه له.. كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين قال صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثمانى عشرة سنة ، لم يرحمه ربه فيكشف عنه ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له.. فقال أيوب : لا أدرى ما تقول ! ! غير أن الله - عزوجل - يعلم أنى كنت أمر على

الرجلين يتنازعان ، فيذكران اللَّه فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما ، كراهية أن يذكر اللَّه إلا فى الحق » ..

وفى ظل هذه الظروف الحياتية الصعبة التى كان عليها نبى اللَّه أيوب.. دأبت زوجه على خدمته.. ، وقد تفوقت فى هذا الأمر على هذين الصاحبين اللذين أخذا يعايرانه بالذنب نظرًا لطول مكوثه مريضًا ، من دون شفاء !. فكانت تأتيه بطعام وتحمد اللَّه معه إذا حمده أيوب على ما به ، ولم يكن يفتر عن ذكر اللَّه تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه ربه .. قال ذلك أمام مرأى ومسمع من إبليس اللعين ، الذي أعيته كل الحيل للنيل من صبر هذا النبى الكريم ، فأخذ يفكر هو وأعوانه من الشياطين الذين أوحوا إليه بضرورة النيل منه عن طريق زوجه الصابرة « رحمة ».. تمامًا كما فعل من قبل مع زوج آدم عليه السلام..

ورآها الشيطان فكرة .. فاتجه على الفور إلى زوج أيوب عليه السلام لكى ينال من عزمها ، ولعله بذلك ينال ما يحلم به من تفتيت صبر أيوب !..

ويحكى بعض الرواة تفاصيل كثيرة عن مكر إبليس تجاه زوج أيوب عليه السلام .. فقالوا : إن الشيطان حين انطلق ناحية زوج أيوب عليه السلام ، كانت تطلب الصدقة ، فتمثل لها فى صورة رجل ، وأخذ يوسوس لها بعدما أخبرته بحال زوجها فى مرضه ، وذكرها بما كانت فيه من النعيم والمال ، وذكرها بجمال زوجها أيوب وشبابه وما هو فيه الآن من الضرر وأن ذلك لن ينقطع عنه أبدًا .. فصرخت ، فلما صرخت علم أنها جزعت ، فأتاها بسخلة ، وقال لها : ليذبح أيوب هذه لى وسيبرأ ، فجاءت تصرخ وقالت : يا أيوب إلى متى يعذبك ربك ولا يرحمك ؟ أين المال والماشية ، أين الولد ، أين الصديق؟ أين ثوبك الحسن ؟ ! فقد صار مثل الرماد ، وأين جسمك الحسن فقد بلى .. اذبح هذه السخلة واسترح ، فقال لها أيوب : أتاك عدو اللَّه فنفخ فيك فأجبتيه ، ويلك أرأيت ما تبكين عليه مما كنا فيه من المال والولد والصحة .. من أنعم به علينا ؟ !. قالت : اللَّه ، قال : فكم متعنا به ؟

قالت : ثمانين سنة ، قال فمنذ كم ابتلانا اللَّه بهذا البلاء؟ !. قالت : منذ سبع سنين ، قال ويلك واللَّه ما عدلت ولا أنصفت ربك .. ألا صبرت فى هذا البلاء الذي ابتلانا به ربنا ثمانين سنة ، كما كنا فى الرخاء ، واللَّه لئن شفانى اللَّه لأجلدنك مائة جلدة.. كما أمرتينى أن أذبح لغير اللَّه تعالى ، وطعامك وشرابك الذي تأتينى به على حرام لا أذوق مما تأتينى به شيئًا بعد أن قلت هذا .. فاغربى عنى ولا أراك، فطردها فذهبت..

ولما رأى أيوب عليه السلام أنه طرد زوجه وليس عنده طعام ولا شراب .. ولا صديق خر للَّه ساجدًا وقال : ﴿ **رب إنى مسنى الضر** ﴾ ثم رد الأمر كله إلى ربه .. واستسلم لإرادته ، وقال : ﴿ **أنت أرحم الراحمين** ﴾ فقيل له : ارفع رأسك فقد استجيب لك.

وهكذا صنع اللَّه من ضيق هذا النبى الكريم فرجًا بعدما اختبره اختبارًا دقيقًا !. وبعد أن عرف وهو أعلم بذلك ، قوة إيمان عبده أيوب الذي انتصر فى كل ما واجهه من بلايا ومشاكل على الشيطان ، عندئذ بدأت فيوضات الرحمن تنهال على أيوب عليه السلام .. وكانت البداية أن أذهب عنه المرض .. وذلك مصداقًا لقوله تعالى : فى سورة ص : ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۞ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۞ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۞ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾.

وبعد أن شُفى أيوب عليه السلام من مرضه الطويل .. أعاد اللَّه إليه زوجه .. وأوحى إليه أن يخرج من مشكلة حلفه .. بوسيلة طيبة فأمره بأن يأخذ قبضة من حشيش لين أو عيدان حطب .. عددها مائة .. يضرب بها زوجه مرة واحدة. وبذلك يكون قد جمع بين الوفاء بيمينه وبين الرحمة بزوجه ، التى كانت تحسن خدمته طوال مرضه ، ثم توالت بعد ذلك حالات الفرج فى حياة هذا النبى الكريم

.. فرد اللَّه عليه أمواله التى ضاعت من قبل .. وكذلك أولاده ، واختلف العلماء فى كيفية ذلك ، فقال قوم : لما ابتلى اللَّه أيوب فى الدنيا مثل له أهله .. فأما الذين هلكوا فإنهم لم يردوا عليه فى الدنيا وإنما وعد اللَّه أيوب أن يؤتيه إياهم فى الآخرة .. وقال وهب كان لأيوب سبع بنات وثلاثة بنين ، وقال آخرون : بل ردهم اللَّه تعالى إليه بأعيانهم وأعطاه أهله ومثلهم معهم ، وهذا قول ابن عباس وابن مسعود وقتادة وكعب ، حيث قال : أحياهم اللَّه وآتاه مثلهم وذكروا أن عمر أيوب كان ثلاثا وتسعين سنة وأنه أوصى عند موته إلى ابنه « حومل » ، وأن اللَّه بعث بعده بشر بن أيوب نبيا سماه ذا الكفل وأمره بالدعوة إلى توحيده ، وأنه كان مقيمًا بالشام طول عمره حتى مات ، وكان مبلغ عمره خمسا وتسعين سنة وأن بشرًا أوصى ابنه عبدان وأن اللَّه تعالى بعث بعده شعيبًا عليه السلام ..[1].

* * *

(١) عرائس المجالس .. مصدر سابق.

٨- سيدنا يونس عليه السلام

صاحب الحوت

على الرغم من أن نبى اللّه يونس عليه السلام ٠٠ قد أرسل لأهل قريته التى زاد عددها كما جاء بالقرآن الكريم على مائة ألف ، وعلى الرغم من وصفه بقله الصبر وسرعة الغضب ٠٠ فإن اللّه تعالى ولحكمة عظيمة لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى ٠٠ قد ذكره فى أكثر من آية فى سور عديدة من سور القرآن الكريم ٠٠ وكذلك خصص له سورة قرآنية كاملة تحمل اسمه وهى سورة « يونس »٠

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ** ﴾[يونس : ٩٨]٠

وفى سورة الصافات قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۝ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِن يَقْطِينٍ ۝ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ** ﴾[الصافات : ١٣٩ - ١٤٨]٠

وفى سورة الأنبياء فى قوله تعالى : ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[الأنبياء : ٨٧ - ٨٨]٠

وفى سورة القلم أيضًا قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ۞ لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِن رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۞ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [القلم : ٤٨ - ٥٠].

وقد وصف اللَّه تعالى هذا النبى الكريم بصفتين .. أولاهما أنه ذو النون ، أى صاحب الحوت .. وثانيتهما أنه كان من المسبحين الذين اتخذوا من كلمات رب العالمين سبيلاً للنجاة من ظلمات البحر وظلمات بطن الحوت ، ورغم ذلك فقد ابتلاه اللَّه فى نفسه .. حتى صار من أنبيائه المبتلين فى الدنيا ..

ولقد صبر على هذا البلاء حتى فرج اللَّه عنه بلاءه .. وكان سبيله إلى ذلك أنه ذكر اللَّه كثيرا. ولما صبر على هذا البلاء أعيد للحياة مرة أخرى ، ومَنَّ اللَّه عليه من فضله .. وكان من عباد اللَّه الصالحين.

ولنا مع قصة يونس عليه السلام وابتلائه ببطن الحوت.. الذي تحول فى لحظات إلى سجن مظلم ومخيف .. وقفات كثيرة .. قد تطول وقد تقصر .. وفق مجريات القصة فى مختلف المصادر.

ونحن نسوقها هنا على سبيل العظة والعبرة ، لهؤلاء الملتاعين الذين لا يصبرون أبدًا أمام اختبارات السماء. ونريد أن نقول لهم المرة تلو الأخرى : عليكم بالصبر والابتعاد عن الجزع .. ولكم فى أنبياء اللَّه أسوة حسنة من الذين ابتلاهم رب العالمين فصبروا وشكروا ، فجزاهم اللَّه خير الجزاء.

وحين نتحدث عن قصة يونس عليه السلام مع الحوت ، كان لابد لنا أن نتوقف أمام نسبه وحياته ، وذلك قبل الغوص معًا فى قلب قصة ابتلائه داخل بطن الحوت.

والنبى يونس المقصود من الحديث .. هو يونس بن متى عليه السلام ، وقد نقل الألوسى عن « البحر » أنه كان فى زمن ملوك الطوائف من الفرس ، وأنه أوتى النبوة وهو ابن ثمان وعشرين سنة..

و« متى » هو اسم أبيه كما رجحه ابن حجر ، وقيل : اسم أمه وهو المذكور فى تفسير عبد الرازق ، وبعض أهل الكتاب يسمونه « يونان بن متى » ، وبعضهم يسميه غير ذلك.

وتأكيدًا على ما قيل بشأن نسبه إلى أمه ذكر الثعلبى أن أحدًا من الأنبياء لم ينسب أبدًا إلى أمه إلا عيسى ابن مريم ويونس بن متى - عليهما السلام - ، وهو النبى الذي قال فيه رسول اللَّه ﷺ « لا ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى ».

وقال العلماء بأخبار القدماء : كان يونس رجلاً صالحًا يتعبد فى الجبل ، وكان فى قرية من قرى الموصل يقال لها « نينوى » ، وكان قومه يعبدون الأصنام فبعث اللَّه إليهم يونس بن متى عليه السلام بالنهى عن الكفر والأمر بالتوحيد .. وكان يونس عليه السلام رجلاً صالحًا لا يصبر على الناس فلحق بالجبل يعبد اللَّه تعالى فيه ، وكان حسن القراءة يستمع إلى قراءاته الوحوش كما كان لداود فى زمانه ، كما كانت تعتريه حدة ، ولذلك نهى رسول اللَّه ﷺ أن يكون مثله لخفة وعجلة ظهرت فيه ، وذلك ظاهر قول اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ .. لأنه كان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم.

ومن هنا قال رسول اللَّه ﷺ « كان يونس بن متى فيه عجلة وخفة فلما حمل أعباء النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل .. ولذلك السبب ذهب مغاضبًا ».

ولا شك أن غضبه السريع وعدم صبره على قومه .. كان البداية الحقيقية لتعرضه لذلك الابتلاء الذي أفضى به إلى بطن الحوت .. وقد ظن أن اللَّه لن يقدر عليه.. لكنه سرعان ما عرف ما وقع فيه .. وبالتالى أخذ يسبح رب العالمين أن يعفو عنه ويسامحه .. وقد كان .. إذ أمر اللَّه الحوت أن يخرجه من بطنه ليعود

إلى الحياة من جديد ، وهذا ما سنعرفه بالتفاصيل بعد لحظات حين نعيش مع هذا النبى الكريم قصة ابتلائه فى جوف البحر. بعدما دخل إلى بطن الحوت سجينًا حزينًا !.

الابتلاء فى النفس

يقول الإمام الأكبر الراحل الدكتور عبد الحليم محمود : إن يونس بن متى هو صاحب الدعوة المشهورة ، التى يقول عنها رسول اللّه ﷺ : « لم يدع مسلم ربه فى شىء قط بها إلا استجاب له ».

وهذه الدعوة هى : ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾ وهى دعوة تبدأ بالتوحيد الخالص الذي يتمثل فى قوله تعالى : ﴿ **لا إله إلا أنت** ﴾ ، وتثنى بالتنزيه ، تنزيه اللّه عن كل ما يتنافى مع الكمال ، وذلك يتمثل فى قوله ﴿**سبحانك**﴾ ثم تنتهى بالاعتراف الخاشع الخاضع المتمثل فى قوله : ﴿ **إنى كنت من الظالمين**﴾.

وهذه الكلمات القليلة التى يتمثل فيها الإيجاز المعجز فى اللفظ والتى يتمثل فيها السمو السامى فى المعنى لا تطلب شيئًا فى صراحة ولا تنادى بشىء بأسلوب مباشر ، ولكنها مفعمة بالطلب ، ومفعمة بالاستغاثة ، ولقد دعا بها سيدنا يونس وهو فى بطن الحوت(١).

ويؤكد العديد من المؤرخين أن حال هذا النبى الكريم مع الابتلاء.. قد بدأ منذ أن خرج من قريته مغاضبًا ، واختلف هؤلاء المؤرخون فى سبب هذا الغضب ، فقال البعض ذهب مغاضبًا لقومه ، وهى رواية الضحاك والصوفي عن ابن عباس قال : كان يونس بن متى وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة

---

(١) أنظر كتاب: مع الأنبياء والرسل ، مصدر سابق.

أسباط ونصفًا وبقى سبطان ونصف وكانوا اثنى عشر سبطا فيهم النبوة والملك فأوحى اللَّه إلى أشعيا النبى أن سر إلى حزقيا الملك وقل له أن يوجه نبيا قويا أمينا فإنى ألقى الخوف فى قلوب أولئك الأسباط حتى يرسلوا معه بنى إسرائيل. فقال له الملك : فمن ترى؟ ! وكان فى مملكته خمسة من الأنبياء ، فقال : يونس فإنه قوى أمين ، فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج ، فقال له يونس : هل أمرك اللَّه بإخراجى؟ ! قال : لا ، قال : هل سمانى لك ؟ قال : لا ، فقال : ههنا غيرى أنبياء أقوياء أمناء.. فألحوا عليه فخرج مغاضبًا للنبى والملك ولقومه ، فأتى بحر الروم وكان من أمره ما كان مع الحوت.

أما الحسن البصرى فقال : إنما غاضب ربه من أجل أنه أمره بالمسير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه ، فسأل يونس ربه أن ، ينظره ليتأهب للشخوص إليهم ، فقال له : الأمر أسرع من ذلك ، ولم ينظره حتى سأل أن ينظر إلى أن يأخذ نعله يلبسها فقيل له نحو القول الأول ، وكان رجلاً فى خلقه ضيق ، فقال أعجلنى ربى أن آخذ نعلى فذهب مغاضبًا .. كما روى شهر بن حوشب عن ابن عباس قال: أتى جبريل يونس عليه السلام فقال له : انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم إن لم يتوبوا ، فقال له : ألتمس دابة ، قال الأمر أعجل من ذلك فغضب وانطلق إلى البحر فركب سفينة فكان من أمرها ما كان.

وأما الرأى الأصوب فى سبب غضب هذا النبى الكريم .. وفق إجماع المفسرين فى العصر الحديث .. هو ما رواه كل من الشيخين الكريمين الدكتور عبدالحليم محمود والشيخ محمد متولى الشعراوى.

مما قاله الدكتور عبد الحليم فى هذا الشأن أن اللَّه قد أرسل سيدنا يونس عليه السلام إلى أهل « نينوى » من أرض الموصل بالعراق ، وكان سيدنا يونس ككل الأنبياء متحمسًا لدعوته ، قائمًا بها فى الصباح والمساء. وكلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ومتخذًا لها كل الوسائل التى فى إمكانه لتنتشر وتعم ، ولكن قومه قابلوا

تحمسه بفتور، وقابلوا دعوته إلى الإيمان بالكفر الأصم، وقابلوا عنايته بعناد لا يلين، وإذا كان سيدنا نوح فى مثل هذا الموقف الذي لا بارقه فيه من أمل فى إصلاحه دعا على قومه قائلاً: ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ سورة نوح.. فكان سيدنا يونس رأى أن لا فائدة فى المكث بينهم، فأنذرهم بحلول العذب بهم بعد ثلاثة أيام، وخرج من بينهم معلنًا أنه يخرج من أجل النجاة من عذاب اللَّه الذي أوشك أن يحل بهم لكفرهم وطغيانهم، وغادر المدينة متعمدًا أن يكون ذلك على مرأى ومشهد من أهلها.. وما إن فارقهم نبى اللَّه حتى بدأ الخوف بل والرعب يدب فى قلوبهم، ويتغلغل فى نفوسهم. خاصة وأنهم تأكدوا أن العذاب واقع بهم لا محالة، وأخذ خيالهم يصور لهم العذاب وألوانه وفجائعه، فتجمعوا وتشاوروا فيما بينهم وانتهوا إلى اتفاق عام يصوره الإمام ابن كثير بقوله: قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد من السلف والخلف: إنه لما خرج من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم قذف اللَّه فى قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها.. ثم لجأوا إلى اللَّه - عز وجل - ، وصرخوا وتقربوا إليه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات، وخارت الأنعام والدواب والماشية ورغت الإبل وفصلانها وخارت البقر وأولادها، وكانت ساعة عظيمة هائلة.

ويضيف الدكتور عبد الحليم محمود: لقد فارق يونس عليه السلام قومه بعد أن أنذرهم بعذاب مدمر فتضرعوا إلى اللَّه - سبحانه وتعالى - بالتوبة والإنابة والاستغفار، مقدمين بين يدى ذلك كله، الإيمان الصادق فكانت ثمرة ذلك نجاتهم من عذاب اللَّه..

ولقد صور لنا القرآن الكريم هذا الموقف فى قوله تعالى: ﴿ إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨].

أما يونس عليه السلام فإنه لما ضاق بقومه ذرعًا فارقهم مغاضبًا منذرًا إياهم بالعذاب ، ولم تكن هذه المفارقة عن استئذان من اللَّه - سبحانه - أو عن أمر منه ، وإنما ظن هو أن هذا فى شريعة اللَّه أوسع من أن يحتاج إلى إذن ، وأنه غير مضيق عليه من قبل اللَّه فى المكث أو المفارقة ، أى أنه مجال مباح. وعزب عن ذهنه فى ساعة مغاضبته لقومه أن المفارقة بدون استئذان إذا جازت للأفراد العاديين ، فإنها لا تجوز بالنسبة لمن يصطفيهم اللَّه للعبودية الخالصة ، ومن يجتبيهم مرسلين من قبله.

وكان من تقدير اللَّه سبحانه أن وصل يونس عليه السلام إلى شاطئ البحر وركب مركبًا مشحونًا ثقيل الحمولة وهبت ريح جعلت المركب على حافة الغرق بمن فيها ، فكان لابد من تخفيف حمولتها حتى يستقيم أمرها.. واستهم الركاب على من يلقون به فى البحر تخفيفًا للحمولة ، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام فألقوه فى البحر.

ولما ألقوه فى البحر ، بدت له الأمور فى غاية الصعوبة وأنه غارق لا محالة.. فما كان عليه إلا الاستسلام لأمر ربه.

إلا أن اللَّه - سبحانه وتعالى .. ولحكمة عظيمة قد أصدر أوامر السماء إلى حوت كبير فابتلعه ، وفجأة رأى سيدنا يونس نفسه فى بطن الحوت بين ظلمات ثلاث ! ، فاشتد كربه وبلاؤه وتأكدت لديه النهاية المحتومة بالهلاك. إلا أنه أسرع فى الوقت المناسب يطلب العون من رب العالمين. مستغيثًا باللَّه.

وقد ذكر ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٨٧].

فانظروا ماذا كان رد الفعل العظيم عند رب العالمين .. وهو المطلع على أعمال العباد .. سواء فى الأرض أو فى السماء أو فى أعماق البحار فقد روى يزيد

الرقاشى قال : سمعت أنس بن مالك يقول : إن يونس النبى عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت قال : اللَّهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ٠٠ فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش ، فقالت الملائكة : يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة٠٠ فقال : أما تعرفون ذاك ؟ !٠٠ قالوا : لا يارب ومن هو ؟٠ قال : عبدى يونس ، قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة ؟ ! قال : بلى : فأمر الحوت فطرحه فى العراء٠

لقد أمر اللَّه الحوت أن يلقى عبده يونس عليه السلام بالعراء ، وهو ضعيف البدن كما أنبت عليه شجرة من يقطين وهو نبات القرع ليأكل منه ٠٠ وهو غذاء مفيد ، دون أن يسعى لنيل غذائه وهو بهذه الدرجة من الضعف٠ وعناية اللَّه فوق كل عناية ، وهى العناية التى تحدث عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِن الْمُسَبِّحِينَ۞ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾[الصافات : ١٤٣-١٤٤] ، وفى قوله تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ **فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِن الظَّالِمِينَ۞ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِن الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾[الأنبياء : ٨٧ - ٨٨]٠

أما بخصوص ما قاله إمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوى ٠٠ فهو لم يبعد كثيرًا عما سقناه من تفاصيل سابقة بشأن قصة يونس عليه السلام مع أهل قريته ومع الحوت ٠٠ وإن كان قد ساق بعض المعلومات المهمة بشأن هذا الابتلاء كقوله : إن قصة ابتلاء يونس بالحوت قد ذكرها عداس خادم بستان الطائف عندما ذهب رسول اللَّه ﷺ إلى هناك يطلب النُصرة ، فحرض أهل الطائف عليه غلمانهم وسفهاءهم ، فقذفوه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان ، فدخل إلى بستان ، فرآه خادم البستان واسمه عداس ، وأتى له بقطف عنب ليأكله ثم تكلم معه فأخبره عداس أنه من « نينوى » قال له رسول اللَّه ﷺ : « قرية العبد الصالح » قال عداس : وما أدراك بالعبد الصالح ؟ فقال : إنه نبى وأنا نبى٠

ولقد اختلف العلماء كذلك فى مدة مكث يونس عليه السلام فى بطن الحوت ..
فقال أحدهم : ثلاثة أيام ، وقال آخر : سبعة أيام ، وقال الضحاك : عشرون يومًا ..
وقال السدى والكلبى : أربعون يومًا. فلما أخرجه الله من بطن الحوت أنبت له شجرة من يقطين ، وهو القرع ، فجعل يستظل بها ، ووكل الله به وعلة تختلف إليه فيشرب منها لبنا.

وهناك من الروايات التاريخية التى زادت فى قصة يونس عليه السلام .. خاصة بعد نجاته من بطن الحوت ، ومن هذه الروايات ما يؤكد أصحابها أن يونس عليه السلام قد رجع إلى قومه وعاش بينهم مع ولده أربعين ليلة ثم خرج سائحًا وخرج قومه معه.. كما صاحبه ملك مدينته فى سياحته الدينية ، وظلا يعبدان الله - تعالى - حتى ماتا - عليهما السلام -

ويؤكد صاحب كتاب عرائس المجالس أن يونس عليه السلام ظهر فى زمان ملوك الطوائف.

وكذلك اختلف العلماء فى عدد الزيادة التى ذكرها القرآن الكريم بشأن أهل قريته .. إذ كانوا فعلاً مائة ألف .. أما الاختلاف فقد شمل هذه الزيادة .. فمنهم من قال : إن هذه الزيادة تشمل عشرة آلاف ، ومنهم من قال : إن رسول الله ﷺ حين سأل عن هذه الزيادة قال : يزيدون عشرين ألفا ». وعن ابن عباس : كانوا مائة ألف وثلاثين ألفًا ، وقال سعيد بن جبير : كانوا مائة ألف وسبعين ألفًا. كما اختلفوا كذلك فى توقيت إرسال يونس عليه السلام إلى قومه.. وهل كان إرساله إليهم قبل أو بعد الحوت ؟ !.

وخلاصة القول أن العبرة الأساسية التى من الواجب الوقوف عندها بعد قراءة متأنية لقصة يونس عليه السلام مع قومه ومع الحوت .. هى أن الله تعالى نجى عبده يونس عليه السلام .. لأنه كان من المسبحين وكذلك نجى قوم قريته الذين بادروا بالإيمان بالله وبرسالة يونس عليه السلام .. وتلك هى الغاية الكبرى من وراء حادث الابتلاء.

٩- سيدنا موسى عليه السلام
كليم اللَّه

يعتبر النبى الكريم موسى عليه السلام ٠٠ من أوائل الأنبياء والرسل الذين ارتبطوا فى واقع الأمر بأولى الرسالات السماوية المكتوبة ٠٠ إذ بعثه اللَّه وكما نعلم جميعًا لبنى إسرائيل حاملاً لهم أول كتاب منزل من السماء فيه هدى ورحمة ، وقد عاصر هذا النبى الكريم فترة خصبة من تاريخ مصر الفرعونى ، لا يزال عليها خلاف كبير بين المؤرخين ، هذه الفترة التاريخية ارتبطت هى الأخرى بمسار هذه الرسالة وتوقيت نزولها على بنى إسرائيل الذين ظلوا يعيشون فى مصر منذ وصول النبى الكريم يوسف عليه السلام ثم أبيه وبقية أفراد قبيلته من أرض كنعان بفلسطين٠

لقد أرسل رب العالمين رسوله ونبيه الكريم موسى عليه السلام بالتوراة التى أنزلها عليه فوق أرض سيناء ٠٠ لهداية بنى إسرائيل ، وتعريفهم أصول التوحيد ٠٠ بعدما نسوه منذ عهد يوسف عليه السلام٠

ونظرًا لأن هذا النبى الكريم قد بُعث لقوم مجادلين كما بعث فى فترة زمنية شهدت ازدياد الكفر باللَّه خاصة من جانب فرعون وهامان وقومهما ، فقد أمده اللَّه بعشر آيات بينات ٠٠ استطاع من خلالها وفى ظل رعاية اللَّه إظهار الحق والانتصار له ، رغم ما كلفه ذلك من مشاق سواء مع بنى قومه أو مع آل فرعون !٠

وكذلك تعتبر رسالة موسى عليه السلام والمعروفة بالرسالة اليهودية من أوائل رسالات السماء التى تلقاها نبى بحديث مباشر وقع بين رسول وبين ربه ، وقد أوضح لنا ذلك رب العالمين فى قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى ۞ إِنِّي أَنَا**

رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى ۞ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ۞ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ۞ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ۞ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ [طه : ١١-١٦] ..

هذا الحديث الذي دار بين النبى الكريم موسى عليه السلام وبين رب العالمين قد جاء من وراء حجاب - وقد بين لنا ذلك القرآن الكريم فى حديث رب العزة عن الكيفية التى كانت تتم بها مناجاة رب العالمين لعباده المصطفين الأخيار من الأنبياء والرسل ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى : ٥١].

وموسى عليه السلام .. يعتبر كذلك من الأنبياء والمرسلين الذين ابتلاهم رب العالمين .. كما ابتلى من قبل غيره من الرسل المقربين ، وجاء هذا الابتلاء متنوعًا ومرتبطًا بأكثر من فترة تاريخية فى حياة هذا النبى الكريم. وكعادة هؤلاء المصطفين .. فقد صبر النبى موسى عليه السلام سواء مع نفسه التى ابتلاها الله أو فى صحته ، أو مع قومه .. وآل فرعون ..

وسوف نتحدث تفصيلاً عن هذه الابتلاءات عندما نفرغ من بيان بعض الذي قيل عن حياة هذا النبى وعن نسبه ومولده ، وبعض الومضات النورانية من حياته الشريفة.

وكما سبق أن أوضحنا فقد ارتبطت رسالة موسى عليه السلام ، بقومه من بنى إسرائيل .. وكذلك بالقوم الذين أقاموا معهم .. وهم آل فرعون ، لذلك فإن قصة موسى عليه السلام وأخيه هارون تعتبر على رأس القصص التى تكرر الحديث عنها فى القرآن الكريم فى أكثر من عشرين سورة ، تارة - كما يؤكد ذلك الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى - بصورة مختصرة ، وتارة بصورة مفصلة.

ومن السور القرآنية التى تحدثت عن هذه القصة بصورة مفصله سور البقرة ، الأعراف ، وطه ، والشعراء ، والقصص.

ولقد اقتضت حكمة اللَّه أن يولد هذا النبى الكريم فى عام يقتل فيه المواليد من أبناء بنى إسرائيل عقابًا لهم على بغيهم وطغيانهم وإفسادهم . هذا العام نفسه هو الذي بدأ فيه أول الابتلاءات التى أصيب بها موسى عليه السلام .. إذ حكم عليه رب العزة أن يعيش غريبًا وحيدًا وبعيدًا عن أمه .. هذه الغربة كانت فى الوقت نفسه رحمة من اللَّه .. إذ نجاه من زبانية فرعون الذين أرادوا قتل كل طفل يولد لبنى إسرائيل .. فإذا كان ابتلاء موسى عليه السلام فى الظاهر ابتلاء غُربة ، وحرمان من رعاية الأمومة .. فكان هذا الابتلاء نفسه من ناحية أخرى ابتلاء رحمة ونجاة من القتل والعذاب.

ولما صبر موسى عليه السلام وكذلك أمه .. رزقه اللَّه بالآيات البينات التى كانت سلاحه الفتاك فى معركته ضد الباطل مع فرعون وآله. وكذلك ابتلى رب العزة نبيه موسى عليه السلام بارتكاب جريمة قتل المصرى ، ولولا رعاية اللَّه وإرادته وحكمته لكان فى عداد المقتولين أيضًا.

ولقد صبر موسى عليه السلام على ما كتبه اللَّه عليه .. فتاب وأناب فرزقه اللَّه بالبينات والرسالة والتوراة ، وكان ذلك هو الابتلاء الثانى فى حياة نبى اللَّه موسى .. ثم جاءه الابتلاء الثالث فى صورة انعكست على صحته عندما أصيب فى لسانه .. فأصبح لا يجيد الكلام ، وقد عوضه اللَّه عن ذلك بأن وهب له أخاه هارون وزيرًا.

إن الوقوف على تفاصيل هذه الابتلاءات لا شك سوف يكمل لدينا صور ابتلاء الأنبياء الذين صبروا وتقبلوا قضاء اللَّه فى حب وطاعة فكان الجزاء كبيرًا.

ولقد رأينا من قبل الوقوف على تفاصيل هذه الابتلاءات فى حياة موسى عليه السلام ضرورة الوقوف على قبس من نور من مسيرة حياته وكذلك نسبه.

وموسى عليه السلام ينتهى نسبه إلى إبراهيم عليه السلام .. فهو موسى بن عمران بن

يصهر، بن ماهيث ، بن لاوى ، بن يعقوب بن إسحاق ، بن إبراهيم ، وكانت ولادته على الأرجح فى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل ميلاد المسيح عليه السلام.

وهناك من الكتب التى توسعت كثيرًا فى ذكر طفولة ونسب موسى عليه السلام .. ومما قيل فى هذا الشأن أنه ولد فى السنة السابعة من حكم رمسيس الثانى ، وهو قول الدكتور رشدى البدراوى .. أما الدكتور محمد سيد طنطاوى فيرى أنه ولد فى عصر « منفتاح » ابن رمسيس الثانى.

وتقول التوراة عن تفاصيل ميلاد موسى عليه السلام : إن أباه كان قد تزوج عمته. إذ تقول التوراة فى الإصحاح ٦ خروج : وأخذ عمرام بن قهات يوكان عمته زوجة له .. فولدت له هارون وموسى.

ويؤكد بعض المؤرخين أن ذلك كان مسموحًا به فى شريعتهم إلى أن جاء موسى فحرم ذلك وعاش موسى عليه السلام وسط بنى إسرائيل حوالى ١٢٠ عامًا ، حيث مات فوق جبل نبو أمام أريحا ، ودفن هناك ولا يعرف إنسان قبره إلى اليوم .. ، ويقال إن بنى إسرائيل بكوا على رحيلة ثلاثين يومًا.

ابتلاء الغربة

لقد شاءت حكمة اللّه تعالى .. أن يولد موسى عليه السلام .. ولا يعيش فى حضانة أمه إلا ثلاثة أشهر فقط .. إذ حكم عليه رب السموات والأرض أن يوضع فى تابوت صغير ، بيد أمه فوق سطح الماء الجارى لكى ينقذه من عذاب القتل ، ويكون فى الوقت نفسه مثار فتنة وإزعاج لآل فرعون !.

ويقول ابن كثير فى هذا السياق : إن الأولين ذكروا أن فرعون - وقد اختلفوا فيمن يكون - لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل قيل له : إن استمر هذا الحال يموت شيوخهم وغلمانهم يقتلون فمن يقوم بما يقومون به من أعمال ، فأمر بقتل

الولدان عامًا وتركهم عامًا ، فولد هارون فى السنة التى يترك فيها الولدان ، ، وولد موسى فى السنة التى يقتلون فيها الولدان ولما حملت به أمه لم يظهر عليها مخايل الحمل ووضعته سرًّا بدون مساعدة القابلات ، ولكن خافت أن يدرى به فرعون ففعلت كما أوحى اللَّه سبحانه وتعالى إليها ووضعته فى صندوق وألقته فى اليم ، أى فى فرع نهر النيل الذي كان بيتها مجاورًا له.

وفى ذلك يقول اللَّه تعالى فى القرآن الكريم : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِن الْمُرْسَلِينَ ﴾[القصص : ٧].

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى۞ أَن اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾[طه : ٣٨-٣٩].

وكذلك كان هذا الابتلاء لأم موسى فى الوقت نفسه التى خافت عليه من القتل .. فتحملت غربة وليدها الصغير . فى صبر ، مما كان له أكبر الأثر فى نفسها ، ولقد علم به رب العالمين. فكافأها على صبرها بأن أعاده إليها من جديد ، ولكن لفترات محدودة.

ويصور لنا القرآن الكريم حالة أم موسى عليه السلام ، وما كانت عليه حين أوحى إليها بإبعاد ابنها عن قلبها ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِن الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

وفى قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾[القصص : ١٢]..

وفى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى۞ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى۞ أَن اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي۞ إِذْ

﴿ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾[طه : ٣٧-٤٠].

ورغم أن أم موسى قد عادت لوليدها الرضيع ربما بعد أيام قليلة فاستراح قلبها .. إلا أن غربة موسى عليه السلام قد طالت .. فى ظل هذا الخوف الذي سيطر على أسرته .. إلى حد أنهم أنكروا معرفتهم به .. إلا على سبيل الشفقة وتقديم خدمة لآل فرعون وإمرأته التى التقطته من اليم .. والتى أقنعت زوجها بألا يقتل هذا الرضيع ليكون لها قرة عين.

وفى ذلك يقول القرآن الكريم ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾[القصص : ٨]..

ولقد انصاع فرعون لرغبة امرأته فظل موسى فى كنفهما يعيش لسنوات مدة طفولته وهم له منكرون ! ، وأمه وأخته ، بل وقومه لم يجرؤوا أن يقولوا إنه من شيعتهم ! ، حتى موسى نفسه .. حين كبر لم يعلم بنسبه إلا متأخرًا ، بل وأكثر من ذلك فقد ظل الخوف يطارد موسى عليه السلام وأسرته حتى من بعد اطمئنان أمه برؤيته ونجاته من القتل ، وفى ذلك يروى الرواة .. أن كبير الكهان قد فطن إلى حقيقة أن قطعة النسيج التى كانت تحت الطفل فى الصندوق هى من صنع بنى إسرائيل ، ولما جاءت أم موسى لترضعه زادت شكوكه فى أن يكون هذا الطفل من بنى إسرائيل ، ولكنه كتم شكوكه ؛ لأن بعض المصريين كانوا كثيرًا ما يشترون مثل هذه الأقمشة الصوفية من بنى إسرائيل ، ووجودها فى الصندوق ليس دليلا مؤكدًا على أن الطفل هو لعائلة من بنى إسرائيل.

ولقد هيأ اللّه لهذا النبى الكريم موضعًا كريمًا ، مما زاد الشك فى قلب هذا الكاهن ، وذلك حين رأى اندفاع امرأة فرعون لأجل استبقاء هذا الطفل واصطفائه لها ولزوجها.

ونظرًا لتدخل رعاية اللَّه - فحفظت عبده ونبيه موسى عليه السلام - فقد ظل يعيش فى كنف فرعون فترة صباه وشبابه وكذلك نجاه من معتقدات فرعون واحتفالاته الدينية ٠٠ إذ لم يكن ذلك الفرعون ليوافق على اصطحابه معه لحضور حفلاته الدينية التى يمجّد فيها كإله ! ، إذ لو ناداه على حد قول الدكتور رشدى البدراوى صراحة أمام الناس « ابنى موسى » لاعتُبر ابنًا حقيقيًّا ويصبح له حق وراثة العرش ، وهو ما كان الفرعون يرفضه ، فكان كثيرًا ما يترك موسى يلهو فى قصره وحدائقه٠

وكذلك تؤكد بعض الروايات أن امرأة فرعون قد ولدت ابنا لها ، بعد خمس سنوات من فترة إقامة موسى فى قصر فرعون ، مما زاد من غربته ٠٠ إذ انحسر عنه كل ما كان يلقاه من رعاية واهتمام !٠

وتقول هذه الروايات أيضًا : إن موسى عليه السلام ٠٠ لما بلغ الخامسة عشرة من عمره ٠٠ وفى ظل ما كان يلقاه من عدم اهتمام به مثل أخيه من فرعون ! !٠ عرف أنه ليس ابنا حقيقيًّا للفرعون ، وبالتالى خرج من القصر ليبحث عن أسرته الحقيقية ، وقد عثر آنذاك على المرأة التى أرضعته وهو وليد ، فأخبرته بحقيقة نسبه ، وأنه ابنها٠ وهو من بنى إسرائيل ٠٠ وليس من أولاد فرعون !٠ وأن أخويه هما هارون ومريم٠

وهكذا نرى أن صبر موسى عليه السلام قد أثمر عن عودته إلى أسرته ، بل وكافأه اللَّه بغير ذلك من المكافآت الربانية العظيمة ، وقد تجلى ذلك فى قول اللَّه تعالى: ﴿ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنْ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] ، وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص : ١٤]٠

الابتلاء فى الصحة

رغم ما قيل بشأن قوة بنيان موسى عليه السلام .. مستدلين فيما قالوه .. على ما حدث له فى قصته مع المصرى الذي قتله بضربة واحدة من قبضة يده ، وما حدث له مع المرأتين اللتين سقى لهما مراعيهما .. حين رفع وحده تلك الصخرة الكبيرة التى كانت فوق بئر الماء فى أرض مدين ، إلا أن اللّه تعالى قد ابتلى موسى عليه السلام بعلة فى لسانه ! ، عاقت كثيرًا ما كان يؤديه من حوارات مع الآخرين.

ولما بعثه اللّه برسالته لفرعون وقومه .. خاف موسى عليه السلام .. من أن تعوقه هذه الإصابة فى لسانه ، فطلب العون من اللّه فى صورة أخيه هارون الذي تمنى أن يكون له بمثابة وزير أثناء أداء مهمته تجاه هداية فرعون وملئه !.

ولقد ذكر المفسرون روايات كثيرة عن توقيت وسبب إصابة موسى عليه السلام بهذه العلة ، مؤكدين أن ابتلاءه بها ، قد حدث وهو صبى صغير ..

ومما ذكروه فى هذا السياق .. ما نقله عنهم الثعلبى فى كتابه « عرائس المجالس » : لما ترعرع موسى عليه السلام. قالت آسية زوجة فرعون أحب أن ترينى ابنى فوعدتها يومًا تريها إياه فيه فقالت آسية لخواصها : لا يبقى منكن واحدة إلا استقبلت ابنى بهدية وكرامة فإنى باعثة بأمينة تحصى ما تصنع كل قهرمانة منكن ، فلم تزل الهدايا والتحف تستقبله من وقت أن خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون ، فلما أن دخل عليها أكرمته ، وفرحت به وأعجبها ما رأت من حُسن أثرها عليه ، ثم قالت لها انطلقى به إلى فرعون ليكرمه فلما دخلت به على فرعون أخذه ووضعه فى حجره فتناول موسى لحية فرعون حتى جذبها ونتف منها بعض شعرات ، وكان فرعون طويل اللحية بل ويقال إنه لطم وجهه.

وفى رواية أخرى أنه كان يلعب بين يدى فرعون وبيده قضيب صغير فضرب به على رأس فرعون ، فغضب غضبًا شديدًا وتطير منه. وقال : هذا عدوى المطلوب

فأرسل إلى الجلادين ليذبحوه ، فبلغ ذلك امرأة فرعون فجاءت تسعى إليه وقالت : ما بدا لك فى هذا الصبى الذي قد وهبته لى ، فأخبرها بما فعل موسى ، فقالت له : إنما هو صبى لا يعقل وإنما جعل هذا من صباه ، وأنا أجعل فيه بينى وبينك أمرًا تعرف به الحق ٠٠ وأضع له حليًا من الذهب والياقوت وأضع له جمرًا ٠٠ فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه ، وإن أخذ الجمرة علمت أنه صبى ! ، فقبض موسى على الجمرة فأحرقت لسانه ، فقالت له آسية : ألا ترى ما فعله ؟ إنه صبى لا يعقل ، فكف عن قتله٠

ويؤكد الثعلبى فى رواياته أن اللّه قد صرف عن موسى فى هذا الموقف ذلك السوء فلم يزل عزيزًا فى بيت فرعون ، وقيل فى هذا الشأن كذلك إن موسى عليه السلام كان سيقبض على الياقوت ، ولكن جبريل عليه السلام ، حول يديه إلى الجمرة التى التقطها بين شفتية فأحرقت فمه !٠

هذه الروايات لاحظناها منشورة فى كثير من كتب التفاسير وكتب التاريخ ، وكذلك قصص الأنبياء حتى أن الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى قد نقلها فى خواطره٠ مع بعض التعديلات٠ إذ استبدل الياقوت بالتمر! ، مع وجود الجمرة التى أصابته بلثغة تسببت فى عقدة لسانه ، واللثغة فى قاموس اللغة العربية ! ، تعدل الحرف إلى حرف غيره ، والألثغ : هو الذي لا يستطيع أن يتكلم بالراء ، وقيل: هو الذي يجعل الراء غينًا أو لامًا ، أو يجعل الراء فى طرف لسانه ، أو يجعل الصاد فاء ، وقيل : هو الذي يتحول لسانه عن السين إلى الثاء٠ وقيل غير ذلك فى لسان العرب٠

ولما كبر موسى عليه السلام ٠٠ كبرت معه علته ٠٠ فكانت كثيرًا ما تعوق حديثه مع الناس ٠٠ وقد صبر على ذلك إيمانًا منه بأنه لا يصيب الإنسان إلا ما كتبه اللّه عليه ٠٠ ولكن حين أبلغ برسالة السماء بعدما اصطفاه اللّه ليبلغ رسالته وكلامه إلى بنى إسرائيل وآل فرعون ٠٠ خشى موسى ألا تسعفه هذه العلة فى هذه المهمة

المقدسة ·· لذلك نراه وقد دعا ربه بأن يهب له أخاه هارون وزيرًا أى سندًا ومعينًا له ··

وبالفعل استجاب رب العالمين لدعاء عبده موسى عليه السلام ·· فجعل من أخيه الكبير هارون عليه السلام معاونًا له فى إبلاغ رسالته لقومه ولآل فرعون ، بل وأكثر من ذلك وتكريمًا لصبر هذا النبى على ابتلائه بهذه العلة ·· فقد جعل من أخيه هارون مشاركًا له ومعاونًا إياه فى كل خطوات تبليغه رسالة السماء·

وقد ظل هارون بالفعل بجوار موسى عليه السلام حتى توفاه اللّه من بعد رحلة التية فى صحراء سيناء·

ويقول الدكتور رشدى البدراوى عن تأثير هذه العلة من وجهة نظره فى مسيرة دعوته ·· أنه لما كُلف موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون لأنه طغى وبغى فى الأرض· أدرك موسى جسامة تلك المهمة ، وأشفق ألا يستطيع القيام بها ، ورغبة منه فى إنجاز ما كُلف به على الوجه الأكمل بدأ فى البحث عن نقاط الضعف فى موقفه ؛ ليعمل على علاجها بمعونة اللّه وتوفيقه·

وكان من أهم هذه النقاط ذلك الضعف الذي أصاب لسانه من جراء ما حدث له مع فرعون حين عرضوا عليه التمرة والجمرة ، فأدرك أن هذا الأمر قد يعوقه عن أداء مهمته إذ أن إقناع الفرعون مهمة شاقة وتحتاج إلى قوة بيان وفصاحة لسان وسعة صدر لدحض ما يتقول به من ألوهية وما يفعله من طغيان·

ويبدو ذلك جليًا فى قول موسى عليه السلام وفق ما جاء بالقرآن الكريم : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِي ۞ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي** ﴾ [الشعراء : ١٢]، وهنا طلب موسى عليه السلام من اللّه علاجًا لهذا الأمر وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۞ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۞ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ۞ يَفْقَهُوا قَوْلِي** ﴾
[طه: ٢٥-٢٨]

بل وأكثر من ذلك ولشعور موسى عليه السلام بثقل هذه المهمة ، فقد أراد عونًا من أخيه ، لذلك فقد دعا ربه بأن يحقق له هذه الأمنية ٠٠ وبالفعل تحقق ما نادى به عليه السلام ٠٠

ويبين لنا القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۞ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۞ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۞ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا** ﴾ [طه : ٢٩ - ٣٥] ، وفى قوله تعالى فى سورة القصص : ﴿ **وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ** ﴾ [القصص : ٣٤]٠

وهكذا أصبح هارون نبيًّا بعدما أشركه اللّه فى أمر أخيه موسى وقد أمرهما بالذهاب إلى فرعون ٠٠ حيث قال رب العالمين : ﴿**اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۞ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**﴾ [طه : ٤٢ ، ٤٣]٠

الابتلاء فى النفس

وكان هذا النبى الكريم على موعد مع الابتلاء الثالث ٠٠ حين وسوس له الشيطان ، فارتكب جريمة قتل انتقامًا لأحد رعايا قومه من بنى إسرائيل ، وفى تصور العديد من المفسرين ، أن موسى عليه السلام حين أقدم على ضرب المصرى ، لم يكن يقصد قتله ! ، وقد اقتضت مشيئة اللّه بهذا الفعل أن يغادر موسى القصر ، بل ويغادر مصر كلها ٠٠ لأجل أن يتلقى هناك فوق أرض سيناء رسالة السماء٠

وكانت البداية على حد قول شيخ الإسلام الدكتور عبد الحليم محمود ٠٠ أن موسى عليه السلام حين دخل المدينة بعدما غادر القصر ، فى وقت هدأ فيه السير وانقطع السائرون ٠٠ واستكان كل إنسان فى بيته يطلب الراحة والهدوء٠ وإذا به يجد رجلين يقتتلان : أحدهما من شيعته والآخر من أعدائه ، وكان موسى معروفًا لدى جمهور الشعب ، فأخذ الذي من شيعته ، يستغيث به ويستنصره ، واقترب

منهما موسى ليفض النزاع ويحسم الخصومة وإذا به من غير قصد يلطم الذي هو عدو لهما لطمة لم يكن يقصد أن تكون قاتلة - وحاشا لنبى أن يقصد ذلك- فإذا فيها القضاء عليه ، وإذا به يخر ميتًا.

وهناك من يؤكد أن موسى عليه السلام قد وكز المصرى فى رقبته .. وفى موقع القتل كما يقولون ، عندئذ أدرك موسى عليه السلام أن هذا الخطأ من الشيطان الذي يريد أن يوقعه فى الإثم ، صحيح أنه قتل خطأ وبدون قصد إلا أنه قتل النفس التى حرم اللَّه قتلها إلا بالحق.

ولنا أن نتصور حال موسى عليه السلام .. حين وجد نفسه متورطًا فى جريمة قتل. لأحد أبناء المجتمع الغريب الذي يقيم فيه هو وقومه .. وهم كانوا من قبل يتوعدونه بالقتل حتى وهو وليد ، مثل أقرانه من أبناء شيعته من بنى إسرائيل. فما كان منه إلا أن دعا ربه أن يخفف عنه هذا البلاء .. وقد اعترف أمام اللَّه وفى دخيلة نفسه بما ارتكب وطلب المغفرة من اللَّه ، وبالفعل استجاب له رب العالمين فغفر له .. بل ونجاه من هذا الابتلاء الجديد بأن أوحى إليه بالرحيل من مصر كلية .. خشية أن يقتله أهل هذا المصرى .. وكانت هجرته هذه على موعدة من اللَّه حتى يصير إلى أرض الميعاد .. ليتلقى فوقها وحى السماء ، وكلمة اللَّه بالتوحيد.

ولقد عبر القرآن الكريم خير تعبير عن هذا الابتلاء الجديد فى حياة موسى عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ۞ فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ** ﴾

[القصص : ١٥-١٨]

ولما تعهد موسى أمام ربه بألا يكون بعد هذا الفعل نصيرًا للمجرمين .. أراد اللّه أن يختبر صدق هذه التوبة وصدق هذا العهد الذي قطعه على نفسه .. ففى اليوم التالى لهذا الحادث كان موسى عليه السلام مارا فى المدينة فرأى الإسرائيلى نفسه الذي كان يتعارك بالأمس يتعارك مع أحد المصريين للمرة الثانية ، فاستغاث بموسى ، وقد كان على وشك أن ينضم إلى هذا الإسرائيلى كما فعل بالأمس. لولا أن تذكر القسم الذي أقسمه بالأمس أمام ربه وهو ألا يكون ظهيرًا للمجرمين ، وقد أقلع عن هذا الفعل بعد أن عرف المصرى أن موسى هو الذي قتل زميله بالأمس ، فذهب مسرعًا إلى فرعون مبلغًا ذلك إياه !. ولذلك بات موسى عليه السلام فى المدينة خائفًا من انتقام فرعون ، وانتقام أهل القتيل.

ونظرًا لأنه قد بَر بوعده له .. وتراجع عن مناصرة الإسرائيلى مرة ثانية. فقد ساعده رب العالمين فى الهروب من هذه المدينة .. ذاهبًا إلى أرض « مدين » التى مكث بها عدة سنوات .. بعدما تزوج من إحدى بنات النبى شعيب عليه السلام ، وهناك وعلى أرض سيناء كان على موعد مع الرسالة ، ومع كلام رب العالمين.

ويصور لنا القرآن الكريم .. كيف دبر اللّه تعالى لموسى عليه السلام طريق الهرب والنجاة من بطش فرعون وقومه هذه المرة أيضًا .. فى قوله تعالى : ﴿ **وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ۞ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ [القصص: ٢٠، ٢١]

ولقد استجاب رب العزة لنداء عبده موسى عليه السلام الذي نجح فى عدة ابتلاءات من قبل نجاحًا باهرًا ، فأخرجه من أرض مصر واختاره نبيا ورسولاً لبنى إسرائيل ، وأول رسول ينزل عليه كتاب من السماء ، وهو التوراة.

ولقد بين لنا القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ**

يَامُوسَى ۞ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى ۞ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ۞ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ۞ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ۞ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ [طه : ١١-١٦].

* * *

١٠- سيدنا محمد ﷺ
آخر الأنبياء والرسل

يكفى نبينا محمدًا - عليه الصلاة والسلام - فخرًا وسط إخوانه من هذه الكوكبة العظيمة من أنبياء اللَّه ورسله ٠٠ أنه حمل القرآن الكريم الذي أنزله رب العالمين على قلبه ٠٠ وهو أخص معجزات اللَّه تعالى وأعظمها وأصدقها وأقواها، وأبقاها إلى يوم الدين٠

فإذا ما ذكر القرآن الكريم ذكر النبى الكريم محمد - عليه الصلاة والسلام - وإذا ما ذكر الإسلام ذكر نبى الإسلام محمد - عليه الصلاة والسلام - وإذا ما ذكرت الرسالات السماوية ذكر خاتم الأنبياء والمرسلين محمد - عليه الصلاة والسلام -٠

وبخلاف هذه الصفات العظيمة والحميدة فقد ذكر اللَّه تعالى نبيه بصفات كثيرة أخرى، أعظمها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾٠

هذا النبى الكريم بعثه رب العالمين لأجل أن يبصر الناس بأعظم رسالات السماء ٠٠ وهو الإسلام، هذا الدين الذي فيه الخروج من الدنيا إلى الآخرة بسلام، وفيه كذلك كل أمور الدنيا التى ترتبط فى الأساس بعبادة اللَّه وتنفيذ أوامره٠ لأجل صالح الإنسان٠

ولو أخذنا معًا نعدد مآثر ومحامد وصفات هذا النبى الكريم وكذلك دين الإسلام ٠٠ ما وسعنا فى ذلك كل لفائف الورق ولا مداد كل البحار، ولكنها فيوضات ربانية نسوقها على سبيل التذكرة كمدخل مهم للحديث عن ابتلاءات هذا النبى الكريم الذي يقف فى مقدمة كل أنبياء اللَّه ورسله٠

وكان صلى اللَّه عليه وسلم مثالاً يحتذى به فى الصبر والرضا ٠٠ والإيمان بأن كل شىء بيد اللَّه ، ولذلك لم يجزع أبدًا حين ابتلاه رب العالمين سواء فى نفسه حين حكم عليه بأن يكون يتيمًا منذ سنوات صباه الأولى ، ولا فى زوجه التى رحلت أمام عينيه ٠٠ وهى البلسم الشافى لكل مشاكله التى واجهها آنذاك مع كفار قريش لأجل نشر الدعوة الإسلامية حتى أنه يوم رحيلها ارتبط ارتباطًا مباشرًا بما سمى آنذاك « بعام الحزن » فى حياة النبى الكريم محمد - عليه الصلاة والسلام٠

ولقد جزاه اللَّه عن صبره على رحيلها خير الجزاء٠ إذ حدثت معجزة الإسراء والمعراج من أجل التسرية عن نبى اللَّه الكريم٠ وحبيب الرحمن محمد - عليه الصلاة والسلام٠

وكذلك نرى هذا النبى الكريم قد صبر وشكر وحمد اللَّه تعالى ٠٠ حين ابتلاه فى ولده الصغير ٠٠ الذي رحل وهو قرة عينيه ، لذلك فإننا نعتبر هذا النبى آخر أنبياء اللَّه ورسله سواء فى رسالات السماء والكتب المقدسة أو فى تلقى بلاء اللَّه، مع الصبر والشكر وعدم الجزع٠ والاستسلام لقدر اللَّه٠

ولا شك أن الوقوف تفصيلاً على هذه الابتلاءات وظروفها الصعبة التى عايشها النبى محمد - عليه الصلاة والسلام - سوف تكون بردًا وسلامًا على كل المبتلين من بنى البشر الذين يجزعون ولا يصبرون ، ولنا ولهم فى رسول اللَّه أسوة حسنة فى كل مانقل وسجله عنه التاريخ وكتب السيرة والسنة النبوية وعلى لسانه الشريف ، وما نود أن نشير إليه فى هذا السياق هو ما سبق وأشرنا إليه عند الحديث عن نوح عليه السلام فيما يخص ما يعترض طريق الأنبياء والرسل من صعوبات قاسية يواجهونها بصبر شديد لأجل أن تنتشر دعوة اللَّه ويسود الإيمان بين الناس٠

ولقد كان محمد - عليه الصلاة والسلام - مثالاً يحتذى به حتى فيما

واجهه من صعوبات أثناء تبليغ دعوة اللَّه إلى قومه ، وإلى كل العالمين من عرب وعجم وغيرهم.

ولولا صبر وحنان وحلم هذا النبى العظيم ، ولولا رعاية اللَّه له وتربيته الخالصة وخلقه العظيم .. لما قام الإسلام ، ولا كان فى الأرض السلام ، وذلك مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وطاعة الرسول هى طاعة اللَّه تعالى .. إذ هو المبلغ لكلام اللَّه وتعاليمه بلا تحريف أو إضافات.

ولقد حفلت كتب السيرة والتاريخ بالكثير مما واجهه النبى الكريم أثناء تبليغ دعوته لقومه .. ولكنه صبر وشكر وقاوم وحمد اللَّه ودعا لهم بالهداية والتوفيق ، فاستجاب اللَّه لدعوته .. فانتشر الإسلام .. وساد القرآن الكريم كل بقاع الأرض ولسوف يسود ويستمر إلى قيام الساعة.

وجدير بنا ونحن على مقربة من سيرة هذا النبى الكريم أن نقف على الشىء الكثير من سيرة حياته الأولى .. كمدخل حيوى آخر لحديث الابتلاءات السابق الإشارة إليه ، وقد حفلت عشرات الكتب بل المئات والآلاف منها بهذه السيرة العطرة ، إلا أننا هنا سوف نقتطف زهورًا يانعة كثيرة بها روائح طيبة .. من اسم وسيرة وحياة محمد ﷺ.

والبداية بالنسبة لهذا المقام .. تكون من الحديث عن زواج عبد اللَّه والد محمد - عليه الصلاة والسلام- من أمه آمنة بنت وهب ؛ إذ من المعروف أن عبداللَّه كان آخر أولاد عبد المطلب أحد سادة قريش آنذاك ، وكان ترتيبه العاشر فى الأولاد الذكور ، كما تذكر ذلك كل كتب التاريخ ..

وكان عبد المطلب جد النبى الكريم قد جاوز السبعين أو ناهزها حين حاول أبرهة مهاجمة مكة وهدم البيت العتيق ، وكان ابنه عبد اللَّه فى الرابعة والعشرين من عمره ، فرأى أن يزوجه ،

فاختار له آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أكبر بنى زهرة إذ ذاك سنًا وشرفًا[1].

وفى اليوم الذي تزوج فيه عبد اللّه من آمنة تزوج أبوه عبد المطلب من ابنة عمها هالة ، فولدت له حمزة عم النبى ، وأقام عبد اللّه مع آمنة فى بيت أهلها ثلاثة أيام على عادة العرب حين يتم الزواج فى بيت العروس ، فلما انتقل معها إلى منازل بنى عبد المطلب لم يقم معها طويلاً .. إذ خرج فى تجارة إلى الشام .. وتركها حاملاً. ومكث عبد اللّه فى رحلته هذه عدة أشهر كان يقضيها فى الذهاب من مكة إلى غزة والعودة منها ، وأثناء رحلته هذه المرة نزل على أخواله من بنى النجار بالمدينة ليستريح عندهم من وعثاء السفر وليقوم بعد ذلك عائدًا إلى مكة ، لكنه مرض هناك فتركه رفاقه حتى إذا ما بلغوا مكة أخبروا أباه بمرض ابنه عبد اللّه .. فما كان من أبيه إلا أن بعث أخاه الحارث أكبر أبناء عبد المطلب ليعود بعبد اللّه بعد شفائه ، وهناك فى المدينة علم الحارث أن عبد اللّه قد مات ودفن بها بعد شهر من مسير القافلة إلى مكة ، فرجع إلى هناك ينعى أخاه إلى أبيه وإلى زوجه آمنة.

ويؤكد الدكتور محمد حسين هيكل أن الأيام والأشهر تقدمت بعد ذلك بآمنة وبان حملها .. حتى وضعت كما تضع كل أنثى .. وكان وليدها غلامًا .. وقد اختار جده عبد المطلب اسم محمد لحفيده الوليد .. حيث يقال فى هذا السياق : إن عبد المطلب حين بلغه خبر ولادة حفيده .. أخذ آمنة وطفلها بين يديه وسار بهما حتى دخل الكعبة وسماه محمدًا ، وكان هذا الاسم غير متداول بين العرب لكنه كان معروفًا ثم رد الجد الصبى إلى أمه وجعل وإياها ينتظران المراضع من بنى سعد لتدفع الأم بوليدها إلى إحداهن على عادة أشراف العرب من أهل مكة.

---

(١) حياة محمد ، د. محمد حسين هيكل.

ولقد اختلف المؤرخون فى العام الذي ولد فيه محمد ﷺ .. فأكثرهم يرى أنه فى عام الفيل وذلك على قول ابن عباس ، ويقول آخرون إنه ولد قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة ، ويذهب غير هؤلاء إلى أنه ولد بعد عام الفيل بأيام أو أشهر أو سنين يقدرها قوم بثلاثين سنة ويقدرها قوم بسبعين. وكذلك اختلفوا فى الشهر الذي ولد فيه عليه الصلاة والسلام ، وإن كانت أقوالهم تؤكد على أنه ولد فى شهر ربيع الأول ، وقيل : ولد فى المحرم ، وقيل : فى صفر والبعض يرجح رجبَ .. على حين يرجح آخرون شهر رمضان.

ليس هذا فقط ، بل اختلف المؤرخون كذلك فى تاريخ اليوم من هذا الشهر ، والوقت الذي ولد فيه أنهارًا كان أم ليلاً ؟ كما اختلفوا فى مكان ولادته بمكة ، ويرجح « كوسان دبرسفال » فى كتابه عن العرب أن محمدًا ولد فى أغسطس عام ٥٧٠ ، أى عام الفيل ، وأنه ولد بمكة بدار جده عبد المطلب.

الابتلاء باليتم

نستطيع أن نقول فى هذا السياق أن نبى الإسلام والبشرية جمعاء محمدًا - عليه الصلاة والسلام - قد ذاق ويلات الابتلاء حتى من قبل أن يولد ، وقد مر علينا من قبل أن والده عبد اللّه قد مات بعد زواجه من آمنة ربما بثلاثة أشهر فقط ، وقد رحل وتركها حاملاً فيه ثم توفى دون أن يراه ، وهكذا جاء رسول اللّه إلى هذه الدنيا يتيم الأب .. ثم ما لبث أن اكتمل ذلك البلاء فى حياته .. حيث لحقت أمه آمنة بوالده ، فتوفيت بعد أن بلغ عمر وليدها خمس سنوات وعدة أشهر ، وكان محمد - عليه الصلاة والسلام - كما تحكى ذلك كتب السيرة ، قد عاد لتوه إلى مكة بعد غربة دامت خمس سنوات قضاها فى كنف مرضعته حليمة السعدية ، وأرادت أمه آمنة أن تأخذه فى رحلة إلى المدينة لزيارة أخواله هناك وزيارة قبر والده .. وهناك كان هذا النبى الكريم وخلال هذه المرحلة قد زاد حزنه وبلاؤه .. حيث وقف على قبر

والده الذي رحل دون أن يراه ·· وهو بجانب أمه التى جاءت به وكأنما تريد أن تطمئن هذا الزوج الراحل على هذا الصبى الكريم ، كما أرته أمه البيت الذي مات فيه والده والمكان الذي دفن به ، فكان ذلك على حد قول الدكتور هيكل أول معنى لليتم انطبع فى نفس هذا الصبى·

ولعل أمه حدثته طويلاً عن هذا الأب المحبوب الذي غادرها بعد مقامه معها أيامًا معدودات ليجيئه الأجل وهو مقيم فى أرض أخواله ، وكان النبى بعد هجرته يقص على أصحابه حديث تلك الرحلة الأولى إلى المدينة مع أمه حديث محب للمدينة محزون لمن تحوى القبور من أهلها·

وخلال هذه الرحلة أيضًا ·· أرادت آمنة أن تقيم بين أهل زوجها شهرًا ومن بعده أرادت العودة إلى مكة مرة أخرى· لكى تواصل حياتها هناك فى ظل كنف عبد المطلب ·· فركبت وركب من كان معها بعيريهما اللذين حملاهما من مكة ·· فلما كانوا فى أثناء الطريق بين البلدين وفى موضع يقال له «الأبواء» مرضت آمنة وماتت ودفنت هناك· وهذا الموضع الذي ماتت ودفنت به آمنة يبعد عن المدينة ٢٣ ميلاً·

ولما توفيت آمنة رجعت أم أيمن بمحمد - عليه الصلاة والسلام - وهو ينتحب طول الطريق حزنًا على فراق أمه ، وهو الذي كان منذ أيام يسمع من أمه الراحلة أنات الألم لفقدها أبيه· ولما عادت به أم أيمن ·· وهو فى هذه الحالة الحزينة ·· زاد حنان وحفاوة جده عبد المطلب به ، وقربه أكثر إلى نفسه ، ومع ذلك فقد بقيت ذكرى اليتم أليمة عميقة فى نفسه حتى أنها وردت فى القرآن الكريم إذ يذكر اللَّه نبيه بنعمته عليه فقال تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۞ وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى** ﴾[الضحى: ٦،٧]·

ولقد حفل القرآن الكريم وكذلك السنة النبوية بالعديد من الآيات والأحاديث

النبوية الشريفة ٠٠ عن اليتيم وفضل رعايته وتربيته والأخذ بيده فى ابتلائه ٠٠ مما يؤكد لدينا ما توصلنا إليه بشأن كون اليتم إحدى مصائب الزمن والتى من خلالها يختبر اللَّه عباده سواء الذين ذاقوا مرارته اليتم أو الذين يقفون موقف الرجال فى ظل هذا الابتلاء٠

ولقد كان رسول اللَّه ﷺ من أوائل عباد اللَّه الذين صبروا على الابتلاء باليتم ٠٠ حتى إن اللَّه تعالى قد ذكر ذلك فى القرآن الكريم ، وقد كافأه اللَّه بأفضل المكافآت حين صبر وشكر وتقبل قضاء اللَّه فى رحيل والديه ، حتى صار حبيبًا للرحمن وهاديًا لكل البشرية٠ وكان رسول اللَّه حتى من قبل بعثته محبوبًا بين أهله وعشيرته ، بل ومن كل أهل مكة الذين عرفوه بالصادق الأمين٠ ولم يكن ذلك اليتم عائقًا أمام حياته لكى يتوقف أو تأخذه الأحزان بعيدًا عن الرسالة التى أخذ يؤهله لها اللَّه رب العالمين٠

وكتب السيرة قد حكت لنا صورًا كثيرة من صور هذا الإعداد الربانى ٠٠ سواء وهو طفل أو وهو صبى أو وهو فتى يافع وحتى بلوغه سن الأربعين ، تلك السن التى بُعث فيها ، شأنه فى ذلك شأن كل الأنبياء والرسل٠

ونكاد نجزم وفق ما قرأناه ، أن رسول اللَّه ﷺ يعتبر هو النبى الوحيد الذي ابتلاه رب العالمين ٠٠ باليتم ، وقد مدحه اللَّه حين صبر فمن عليه بالخيرات ٠٠ والهداية ، كما ذكر ذلك القرآن الكريم٠

ولم يكن اليتم هو البلاء الوحيد الذي أصاب هذا النبى الكريم ، بل إنه وبعد مرور عدة سنوات قضاها هنيئًا فى ظل دفء زوجة وقفت معه موقف الرجال عندما أبلغها بما كان من شأن جبريل عليه السلام حين تجلى له وأخبره بنبأ السماء ، وبأنه اختير من قبل اللَّه رسولاً للبشرية كلها٠

أقول بعد هذه السنوات الطيبة التى عوضه اللَّه خلالها بالهدوء والسكينة والتفرغ للنظر فى ملكوت اللَّه ، أصيب هذا الرسول الكريم بالابتلاء الثانى حين

قضى رب العالمين على زوجه خديجة بأن ترحل وتتركه وحيدًا وهذا ما سنوضحه بعد لحظات.

الابتلاء فى الزوجة

وكان علينا من قبل الوقوف تفصيلاً على هذا الابتلاء الجديد فى حياة نبينا -عليه الصلاة والسلام - ضرورة معرفة ظروف زواجه من أم المؤمنين التى أخبره جبريل عليه السلام بأن الله يقرئ خديجة السلام وكذلك ظروف نشأته فى شبابه.

ويقول المؤرخون عن ذلك : إنه بعد بلوغ النبى الكريم ثمانية أعوام .. مات جده عبد المطلب .. فتحولت كفالته وتربيته إلى عمه أبى طالب. وكان رجلاً فقيرًا .. وقد أخذ يبحث لابن أخيه عن عمل يساعده من خلاله .. فعمل أولاً بمهنة الرعى ، ثم عندما بلغ الثالثة عشرة شارك فى قوافل التجارة ..

ولما بلغ علمه يومًا أن « خديجة بنت خويلد » - وهى من سيدات قريش ، وصاحبة تجارة واسعة .. وقوافل تجوب بها الشام ومصر - تستأجر رجالاً من قريش فى تجارتها فاقترح على ابن أخيه محمد أن يشارك فى هذه القوافل التجارية ، وقد أبلغها أبو طالب بنفسه رغبة ابن أخيه فى هذه المشاركة.

وكانت تلك بداية ذلك التعارف بين هذا الفتى العربى الذي كان يبلغ آنذاك خمسة وعشرين عامًا وبين السيدة خديجة التى كانت فى الأربعين من عمرها.

ولقد توسع المؤرخون فى ذكر تفاصيل كثيرة عن هذه السيدة الفاضلة نظرًا لارتباطها بسيد الخلق أجمعين ، وقد كانت امرأة غنية ذات شرف ومال ، وكانت من بنى أسد ، كما أنها كانت متزوجة من قبل مرتين فى بنى مخزوم مما جعلها من أوفر أهل مكة غنى ، وكانت تقوم على مالها بمعونة أبيها خويلد. كما ذكر المؤرخون كذلك أن هذه السيدة قد ردت خطبة الذين خطبوها من كبار قريش؛

لأنها كانت على يقين من أنهم ينظرون إلى مالها ، لذلك اعتزمت أن توقف جهودها فقط على تنمية ثروتها.

ويصور لنا الدكتور هيكل لحظات الإعجاب بين هذا الشاب الصادق الأمين وبين هذه المرأة التى انقلب إعجابها به إلى حب ورغبة فى الزواج منه فيقول : فلما بلغت القافلة الظهران فى طريق عودتها قال ميسرة غلام خديجة : يا محمد انطلق إلى خديجة وأسرع فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك فإنها تعرف ذلك لك ، وانطلق عليه الصلاة والسلام حتى دخل مكة فى ساعة الظهيرة ، وكانت خديجة فى علية لها ، فرأته وهو على بعيره ونزلت حين دخل دارها واستقبلته واستمعت إليه يقص خبر رحلته بعبارته البليغة الساحرة ، كما أخبرها بربح تجارته وما جاء به من صناعة الشام ، وهى تنصت مغتبطة مأخوذة ، وأقبل ميسرة من بعد فروى لها عن محمد ورقة شمائلة وجمال نفسه ما زادها علمًا فوق علم وفوق ما كانت تعرف من فضله على شباب مكة ، ولم يكن ذلك إلا رد الطرف كما يقول الدكتور هيكل حتى انقلبت غبطتها حبا جعلها وهى فى الأربعين من سنها ، وهى التى ردت من قبل أعاظم قريش شرفًا ونسبًا ، تود أن تتزوج من هذا الشاب الذي نفذت نظرته ونفذت كلماته إلى أعماق قلبها ..

ولقد تحدثت فى هذا الشأن إلى أختها ، وإلى صديقتها « نفيسة بنت منبه » على قول آخر ، والتى ذهبت تستكشف رغبة هذا الشاب فى أمر هذا الزواج ، فوجدته لا يمانع ذلك ، عندئذ دعته مع أعمامه ليحدد موعد الزواج ، وقد زوجها عمها عمر بن أسد ؛ لأن خويلدًا كان قد مات قبل حرب الفجار.

ويؤكد الدكتور هيكل أنه بهذا الزواج السعيد بدأت صفحة جديدة من حياة محمد - عليه الصلاة والسلام - حياة الزوجية والأبوة التى تعرف من الآلام لفقد الأبناء ما عرف محمد - عليه الصلاة والسلام - فى طفولته لفقد الآباء ، وهذا ما سوف نتحدث عنه بالتفصيل عند الحديث عن الابتلاء الثالث فى حياة هذا النبى الكريم بفقد أولاده.

وكلنا بطبيعة الحال يعرف ويعلم ذلك الدور العظيم الذي لعبته هذه السيدة العظيمة فى حياة الدعوة الإسلامية وفى حياة محمد - عليه الصلاة والسلام - ويكفيها شرفًا أنها كانت أول من آمن برسالة محمد ، حين أخبرها بنزول الوحى بل وأكثر من ذلك فقد كانت له السند والمعين والمشجع القوى على المضى قدمًا فى طريق تبليغ الدعوة الإسلامية دون النظر لما كان يعترضه من مشاكل وصعوبات ، وقد نذرت مالها لتأييد زوجها فى نشر دعوته إلى الإسلام ، لذلك كانت - على حد قول الدكتور هيكل - أول من سارع إلى الإيمان به وقد جربت عليه طول حياته الأمانة والصدق وعلو النفس وحب البر والرحمة.

وكانت هذه السيدة العظيمة إضافة إلى ذلك أمًا لأولاده سواء من البنين أو البنات .. فقد أنجب منها من الأبناء القاسم وعبد اللّه الملقبين بالطاهر والطيب، ومن البنات زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.

وظلت هذه السيدة العظيمة تعيش بجوار زوجها النبى الكريم ، فى ظل معوقات الدعوة الإسلامية ، وفى ظل ما كان يلقاه هذا الزوج الكريم من صعوبات ، صابرة محتسبة أمرها وجهادها عند ربها ، حتى توفاها اللّه.

وقد تركت أثرًا كبيرًا برحيلها حيث افتقد هذا النبى الحب والحنان والقوة والمساندة ، ومما زاد من حزنه الشديد على رحيلها .. أن عمه عبد المطلب كان قد سبقها إلى الرحيل ، وكان الأمر بينه وبين قريش أشد مما كان ، وقد خرج لتوه - عليه الصلاة والسلام - من حصار شعب مكة الذى استمر ثلاث سنوات ، فلم يكد على حد قول أحمد بهجت يتنفس الصعداء بعد أعوام هذا الحصار ويعود لاستئناف حياته ودعوته حتى فوجئ بوفاة زوجه أم المؤمنين خديجة - رضى اللّه عنها - هذه السيدة التى كانت واحة النبى وملاذه ، وهى القلب الرحيم الذي احتضنه قبل الرسالة واحتضن آلامه بعد الرسالة ، وكانت له نعم الرفيق والزوج والصديق والخادم.

وحزن رسول اللَّه ﷺ عليها حزنًا شديدًا وعميقًا حتى سمى المؤرخون هذا العام بعام الحزن.

ولما صبر هذا النبى على هذا الابتلاء إلى جانب صبره الكبير على قومه من الذين آذوه من المشركين. فرج اللَّه عنه حزنه، وجعل منه بابًا مباركًا يدخل من خلاله هذا النبى الكريم إلى معية اللَّه، إذ قدر له أن يركب البراق ويعيش ساعات طيبة بجوار رب العالمين. فى رحلة المعراج، تلك الرحلة العلوية التى كرم بها اللَّه نبيه جزاء ما قاساه فى نفسه وفى سبيل الدعوة الإسلامية، وكانت بذلك أول رحلة لإنسان يخترق بها السماوات العلا وحتى سدرة المنتهى.

الابتلاء فى الأولاد

كنت ولفترة ليست ببعيدة عن توقيت التفكير فى إصدار هذه الأوراق أحسب أن سيدنا محمدًا - عليه الصلاة والسلام - .. كان قد أنجب ولدًا واحدًا هو إبراهيم عليه السلام .. إلى جانب بناته الأربع .. وكذلك كنت أحسب أن هذا النبى الكريم قد ابتلاه اللَّه واختبره فى رحيل هذا الابن العزيز، لولا أن تداركتنى رحمة اللَّه .. فعرفت فى الوقت المناسب أن نبينا الكريم عليه السلام، قد ابتلاه رب العالمين فى رحيل طفلين له من قبل أن يبعث برسالة الإسلام، وكذلك ابتلاه ربه فى رحيل ابنته العزيزة زينب - رضى اللَّه عنها -.

ولقد قلنا من قبل إن هذا النبى الكريم - عليه الصلاة والسلام - قد أنجب من زوجه الأولى .. خديجة بنت خويلد - رضى اللَّه عنها .. ولدين هما القاسم وعبد اللَّه الذي كان يلقب بالطيب، هذان الطفلان ماتا فى الجاهلية قبل أن يبعث رسولنا الكريم بالرسالة المحمدية.

وبرحيل هذين الطفلين تجددت فى قلب هذا النبى أحزان الماضى، حين رحل عنه من قبل كل من أبيه وأمه وجده عبد المطلب وكذلك عمه أبو طالب،

وكلها شخصيات كانت على جانب كبير من الأهمية فى حياة محمد - عليه الصلاة والسلام - وقد ترك رحيلها آثارًا عميقة داخل نفس النبى الكريم ، الذي عاش فى ظل اليتم منذ طفولته ، بل ومن قبل أن يولد عليه الصلاة والسلام.

ويؤكد الدكتور هيكل فيما رواه عن رحيل هذين الطفلين أن رحيلهما قد ترك أثرًا عميقًا فى نفس أبويهما أكثر مما يتركه موت ابن من تأثير كبير فى نفس والديه ، كما ترك موتهما من غير شك فى نفس خديجة ما جرح أمومتها جرحين داميين ، وقد شعر معها زوجها لا ريب بالألم لوفاة ابنيه.

كما حز فى قلبه هذا الألم الحى ممثلة صورته فى زوج يراها كلما عاد إلى بيته وجلس إليها ، وقد دفعه هذا الحزن إلى أن طلب من خديجة أن تشترى له زيد ابن حارثة ثم أعتقه وتبناه ، فكان يدعى زيد بن محمد ، واستبقاه ليكون من بعد خيرة أتباعه وصحبه.

كما يؤكد الدكتور هيكل أن محمدًا - عليه الصلاة والسلام - قد زاد حزنه وابتلاؤه حين مات ولده إبراهيم عليه السلام.

ويرى الدكتور هيكل أن ما أصاب محمدًا فى بنيه هو جدير بأن يترك فى حياته وتفكيره أثرًا لا ريب فى أنه استوقفه ولفت نظره فى كل واحدة من هذه الفواجع وما كانت خديجة تتقرب به إلى أصنام الكعبة من قبل البعث تريد أن تتفادى ما ألم بها من ألم الثكل ، فلا تفيد القرابين ولا تجدى النحور.

ومما يرى فى سياق ما ألم بالنبى من ابتلاءات فى شأن أولاده أنه - صلى الله عليه وسلم - لم ينجب إلا من السيدة خديجة رضى الله عنها ، وماريا القبطية رغم أنه - عليه الصلاة والسلام - قد تزوج من أكثر من امرأة. لذلك نجد أن ألمه كان شديدًا وحزنه كان كبيرًا .. ولكن رحمة الله كانت واسعة ، فتقبل النبى الكريم هذا الابتلاء فى صبر وتجلد ، بلا شكوى أو جزع.

وقد سبق رحيل ابنه إبراهيم ، ابنته الكبرى زينب رضى اللَّه عنها متأثرة بجراح ذلك الحادث الذي وقع لها من قبل ، عندما أذاها الحويرث وهبار حين خروجها من مكة أذى أوقعها فأجهضها .. وقد ظلت عليلة الصحة بعد هذا الحادث، وزاد مرضها حتى توفيت ، وكانت قد سبقتها إلى الرحيل كل من أم كلثوم ورقية ، ولم يبق للنبى من أولاد سوى فاطمة فقط من قبل أن يولد له إبراهيم عليه السلام.

ولقد حزن النبى - عليه الصلاة والسلام - حزنًا شديدًا لفقدانه أولاده البنات ومن قبلهن ابنيه القاسم وعبد اللَّه .. وقد أراد اللَّه أن يفرح قلبه فرزقه من جاريته « ماريا القبطية » التى منحها إياه المقوقس عظيم مصر آنذاك ، فلم يطل به اللَّه انتظار الأسى واستمرار الحزن ، على حد قول الدكتور هيكل فرزقة من « ماريا القبطية » غلامًا دعاه إبراهيم تيمنًا باسم إبراهيم جد الأنبياء الحنيف المسلم.

وكانت ماريا يومئذ ومنذ أهداها المقوقس إلى النبى فى مرتبة السرارى ، فلم يكن لها من أجل ذلك منزل بجوار المسجد كما كان لأزواج النبى أمهات المؤمنين ، بل أنزلها الرسول الكريم بالعالية إحدى ضواحى المدينة فى المحل الذي يقال له الآن « مشربة أم إبراهيم » ، بمنزل يحيط به الكروم.

وكان رسول اللَّه يختلف إليها كما يزور الرجل ملك يمينه ، وكان قد اختارها حين أهداها المقوقس إليه مع أختها « سيرين » التى تزوجها حسان بن ثابت.

ويؤكد بعض الرواة أن رسول اللَّه لم يكن يرجو أن يعقب من أى من زوجاته بعد رحيل أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، وقد تزوج من بعدها تسع زوجات لم يكن بينهن بكر إلا عائشة - رضى اللَّه عنها - التى تزوجها وهى فى التاسعة من عمرها ، فلما حملت ماريا ثم ولدت إبراهيم وقد تخطى رسول اللَّه بذلك الستين من عمره .. امتلأ قلبه فرحًا وسرورًا ، وارتفعت ماريا بهذا الميلاد إلى مكانة أزواجه.

ويصور لنا الرواة مدى الحب والغبطة التى أصابت رسول اللَّه حين جاءه إبراهيم عليه السلام كنعمة من ربه وفضل ، بعدما قارب الستين من عمره ، فيقولون : حمل النبى ﷺ ابنه إبراهيم يومًا بين ذراعيه وهو فياض البشر ، وذهب به إلى زوجه عائشة وقد دعاها لترى ما بين إبراهيم وبينه من عظيم الشبه ، فنظرت عائشة إلى الطفل وقالت إنها لا ترى بينهما شبهًا.

ولما رأت النبى فرحًا بنمو الطفل لاحظت فى غضب أن كل طفل ينال من اللبن ما يناله إبراهيم يكون مثله أو خيرًا منه نموا ، وكذلك كان مولد إبراهيم قد آثار فى زوجات النبى امتعاضًا لم يقف أثره عند هذه الإجابات الجافية بل تعداها إلى أكثر من ذلك(١).

ولذلك حينما رحل هذا الطفل حزن عليه النبى الكريم حزنًا شديدًا ظل يملك عليه نفسه ، ولم يخرجه من هذا الحزن سوى تمسكه برحمة اللَّه .. وبأن اللَّه على كل شىء قدير ، فقد منحه الأولاد والبنات الذين فرح بهم ، ثم أخذهم منه فصبر وشكر .. فعوضه اللَّه عنهم خيرًا .. ثم آتاه ولدًا فى صورة جميلة ، قال عنها المؤرخون إنه كان يشبه النبى إلى حد كبير ، وقد أثار لذلك غيرة وحقد زوجاته ، ثم سرعان ما مات هذا الولد أيضًا .. فلم يجزع نبى اللَّه ولم يضق صدره ، وكان هو ذلك الحليم الذي كان يذهب إلى أطراف المدينة على حد قول الدكتور هيكل وإلى ضواحيها ليعود المريض ويواسى البائس .. ويداوى جراح الكليم ، فإذا أصابه المقدر فى ابنتيه بعدما أصابه من قبل فى أختيها وكما أصابه من قبل رسالته فى أخويها ، فلا جرم أن يحزن ويشتد به الحزن بعد وفاة ابنه إبراهيم ، وإن وجد من بر اللَّه ورفقه به ما يعزيه كيما يسلو.

إن العبرة الطيبة من وراء الوقوف على تفاصيل ابتلاء نبى اللَّه محمد - عليه

---

(١) حياة محمد ، مصدر سابق.

الصلاة والسلام - سواء فى نفسه أو فى زوجه وأولاده. لابد وأن تفرض نفسها على القلوب قبل النفوس ، وتجعل المرء منا يتوقف كثيرًا أمامها وأمام حالات ابتلاء الأنبياء من قبل ؛ لأجل أن يستفيد منها ، فى مجالات الصبر والشكر والرضا بالابتلاء ، والاقتناع والإيمان بقول اللَّه تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾.

ولمن لايريد إلا أن يصبر نقول : إن أمر اللَّه واقع ، وقضاءه لا مفر منه ، والإيمان به هو عين الإيمان ، ولقد لخص لنا اللَّه - تعالى - كل هذه الأمور فى حديثه القدسى الشريف الذي يقول فيه : « من لم يرض بقضائى فليخرج من تحت سمائى وليعبد ربًّا سواى »

تم بحمد اللَّه ،،

* * *

المراجع

* القرآن الكريم.
* الأحاديث القدسية.
* الأحاديث النبوية.
* مناهج أولى العزم من الرسل فى تبليغ الدعوة - د. عبد الوهاب عبد العاطى.
* الابتلاء والدعاء .. أحمد الحوفى - كتاب اليوم.
* قصص الأنبياء والتاريخ - د. رشدى البدراوى ٤ أجزاء.
* القصة فى القرآن. د. محمد سيد طنطاوى (شيخ الأزهر) - جزءان.
* عرائس المجالس - للثعلبى.
* قصص الأنبياء - الشيخ محمد متولى الشعراوى ٢٢ جزءًا.
* أنبياء الله - أحمد بهجت.
* مع الأنبياء والرسل - الإمام الدكتور محمد عبد الحليم محمود.
* قصص الأنبياء لابن كثير.
* قصص الأنبياء للطبرى.
* البداية والنهاية لابن كثير.
* من إعجاز القرآن - رؤوف أبو سعده ج ١ .
* حياة محمد - الدكتور محمد حسين هيكل.

رقم الإيداع : ١٨٤٣٢ / ٢٠٠١